فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك

الدين القيم

ولكن أكثر الناس لا يعلمون

الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا





الدين القيم

الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا



(الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ • ١٩٩٦ م)

الفهرسة في النشر

رقم الإيداع ٧٨١٩ / ٩٦

الإعداد الفني والجمع التصويري بدار الأدب الإسلامي
المراجعة اللغوية الأستاذ رزق هيبة

دار الأدب الإسلامي للنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة

ليماسول ـ ص.ب : ٣١١٠ قبرص
هاتف : ٣٦٩٣٣٦ - ٥ - ٣٥٧
فاكس : ٣٦٩٣٣٦ - ٥ - ٣٥٧

القاهرة ـ ص.ب ٨١
بريد بانوراما ١١٨١١ ج.م.ع
هاتف وفاكس : ٢٦٦٠١٦٤ - ٢٠٢

كلمة الناشر

نحمد اللّٰه حمداً كثيراً علىٰ نعمه أن يسر لنا السبل لخدمة الإسلام ولغة القرآن ، راجين من العلي القدير أن يمدنا بالعون لمتابعة هذا العمل الجليل .

إن كتاب « الدين القيم » هذا هو ثاني كتاب يصدر للمؤلف بعد وفاته ، وسوف نسعىٰ جاهدين بإذن اللّٰه وتوفيقه بإصدار ما تركه المؤلف ـ رحمه اللّٰه ـ من تراثه العلمي الذي يتسم بعمق الفكرة ، وسلاسة الأسلوب ، وإيجاز العبارة .

كما سنقوم بإعادة ما قد تم طباعته سابقاً بعد عمل بعض التعديلات الفنية في الإخراج ، وعمل التصحيحات والإضافات التي أشار إليها المؤلف ـ رحمه اللّٰه ـ .

ولا يفوتنا أن ننبه القارئ الكريم إلىٰ أننا أصحاب الحق الوحيدين لنشر وطباعة وتوزيع جميع كتب **الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا** بالصورة التي بين يديك .

كما نشكر قارئنا الكريم علىٰ اختيار أحد منشوراتنا ونطلب منه العون في إبداء الرأي والإشارة لأي خطأ قد يرد لكي تعم الفائدة .... واللّٰه من وراء القصد .

الناشر

يمـــان عبد الرحمن رأفت الباشا

رضوان عبد الرحمن رأفت الباشا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

صَدَقَ اللَّهُ العَظِيمُ

سورة الروم : آية ٣٠.

مِنْهَاجُ الـحَيَاةِ

مِمَّا لَا مِرْيَةَ[1] فِيهِ، أَنَّ الإِنْسَانَ يَحْيَا حَيَاةً مُتَعَدِّدَةَ الْجَوَانِبِ، كَثِيرَةَ الْمُعْضِلَاتِ وَالـمَشَاكِلِ؛ مُتَشَعِّبَةَ الدُّرُوبِ وَالْمَسَالِكِ... تَتَفَاعَلُ فِيهَا قُوَاهُ الْعَاقِلَةُ مَعَ عَوَاطِفِهِ الثَّائِرَةِ، وَتَتَعَامَلُ فِيهَا غَرَائِزُهُ الْهَائِجَةُ مَعَ أَشْوَاقِهِ السَّامِيَةِ.

إِنَّهُ يَحْيَا حَيَاةً تَخْضَعُ لِمَطْلَبِ الْجَسَدِ وَمُقَوِّمَاتِهِ... كَمَا تَرْنُو إِلَىٰ طُهْرِ النَّفْسِ وَسُمُوِّ الرُّوحِ...

وَتَوَدُّ أَنْ تُؤَلِّفَ مِنْ هَذِهِ الأَجْزَاءِ الْمُنْفَرِدَةِ كُلًّا مُنْسَجِماً مُؤْتَلِفاً...

---

(١) المرية: الشك والارتياب.

لَا يَطْغَىٰ فِيهِ جَانِبٌ عَلَىٰ جَانِبٍ ، وَلَا تَسْتَأْثِرُ فِيهِ حَاجَةٌ بِحَاجَةٍ .

وَمِمَّا لَا مِرْيَةَ فِيهِ أَيْضاً ، أَنَّ قُرْبَ الْإِنْسَانِ مِنَ الْكَمَالِ ... إِنَّمَا يُقَاسُ بِمِقْدَارِ مَا يَسْتَطِيعُ مَعَهُ أَنْ يُوَائِمَ بَيْنَ جَوَانِبِ حَيَاتِهِ ، وَيُنَاسِبَ بَيْنَ نَوَاحِي وُجُودِهِ ...

كَمَا تُقَاسُ أَيْضاً ... بِمِقْدَارِ مَا تَتَمَتَّعُ بِهِ نَوَاحِي هَذَا الْوُجُودِ الْمُخْتَلِفَةِ ، مِنْ سَلَامٍ ذَاتِيٍّ مُنْبَثِقٍ عَنِ التَّكَافُؤِ وَالتَّكَامُلِ ، مُنْبَعِثٍ عَنِ التَّوَازُنِ وَالتَّعَادُلِ .

وَعَلَىٰ هَذَا ... فَلَابُدَّ لِلْإِنْسَانِ الَّذِي وَصَفْنَاهُ ، وَلِحَيَاتِهِ الَّتِي أَشَرْنَا إِلَيْهَا ؛ مِنْ مِنْهَاجٍ يَرْسُمُ الطَّرِيقَ لِجَوَانِبِ حَيَاتِهِ ، وَيُوَضِّحُ الْمَسْلَكَ لِمُتَطَلَّبَاتِ جَسَدِهِ ، وَنَوَازِعِ رُوحِهِ .

لَابُدَّ لَهُ مِنْ مِنْهَاجٍ لِلتَّفْكِيرِ ... يَحُلُّ بِهِ مُعْضِلَاتِ الْكَوْنِ ، وَمَشَاكِلَ الْحَيَاةِ ...

مِنْهَاجٍ لِلْعِلْمِ ... يُرَتِّبُ بِهِ الْمَعْلُومَاتِ الْمُبَعْثَرَةَ ؛ الَّتِي تَهْدِيهِ إِلَيْهَا الفِطْرَةُ وَالحوَاسُّ ...

مِنْهَاجٍ لِشُئُونِهِ الشَّخْصِيَّةِ ... يُحَقِّقُ بِهِ مَطَالِبَهُ الذَّاتِيَّةَ ؛ الَّتِي تَقْتَضِيهَا حَاجَاتُهُ ، وَتَدْعُو إِلَيْهَا غَرَائِزُهُ ...

مِنْهَاجٍ لِشُئُونِهِ الْعَائِلِيَّةِ ... يُحَدِّدُ صِلَاتِهِ بِذَوِي قُرْبَاهُ ، وَيُوَضِّحُ وَاجِبَاتِهِ تُجَاهَهُمْ ، وَمَسْئُولِيَّاتِهِ نَحْوَهُمْ ...

مِنْهَاجٍ يَرْسُمُ لَهُ طَرِيقَ سَيْرِهِ فِي مُجْتَمَعِهِ ؛ الَّذِي هُوَ خَلِيَّةٌ مِنْ خَلَايَاهُ ... يَنْمُو بِنَمَائِهِ ، وَيَضْعُفُ بِمَوْتِهِ ...

مِنْهَاجٍ لِشُئُونِهِ الِاقْتِصَادِيَّةِ الَّتِي هِيَ عَصَبُ الحيَاةِ ... وَوِجْهَاتِهِ السِّيَاسِيَّةِ الَّتِي تُعَيِّنُ لَهُ دَوْرَهُ فِي الْمُعْتَرَكِ الدَّوْلِيِّ ... وَأَوْضَاعِهِ الْإِدَارِيَّةِ الَّتِي بِهَا يُنَظِّمُ طُرُقَ عَيْشِهِ ...

إِنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَىٰ مِنْهَاجٍ ... يَرْقَىٰ بِهِ نَحْوَ الْكَمَالِ ،

وَيَصِلُ بِهِ وَبِبَنِي جِنْسِهِ إِلَىٰ حَيَاةٍ أَفْضَلَ وَعَيْشٍ أَمْثَلَ.

* * *

وَشُعَبُ الحَيَاةِ هَذِهِ الَّتِي تَحْتَاجُ كُلُّ شُعْبَةٍ مِنْهَا إِلَىٰ مِنْهَاجٍ... لَيْسَتْ قَائِمَةً بِذَاتِهَا، مُسْتَقِلَّةً بِنَفْسِهَا، حَتَّىٰ يَتَمَكَّنَ الْإِنْسَانُ مِنْ أَنْ يَخْتَارَ لِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا سَبِيلاً مُسْتَقِلَّةً... تَخْتَلِفُ عَنِ السُّبُلِ الْأُخْرَىٰ فِي وِجْهَتِهَا، وَوَسَائِلِهَا، وَتَتَبَايَنُ فِي طُرُقِ مُعَالَجَتِهَا لِلْمُشْكِلَاتِ، وَحَلِّهَا لِلْمُعْضِلَاتِ.

ذَلِكَ أَنَّ الحَيَاةَ الإِنْسَانِيَّةِ بِأَسْرِهَا كُلٌّ لَا يَتَجَزَّأُ... يَرْتَبِطُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ارْتِبَاطاً لَا تَنْفَصِمُ عُرَاهُ...

وَيُؤَثِّرُ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ تَأْثِيراً لَا يُحَدُّ مَدَاهُ...

وَيَتَأَثَّرُ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ... تَأَثُّراً يَصْعُبُ تَعْيِينُ شَأْوِه.

إِنَّهَا حَيَاةٌ مُتَكَامِلَةٌ، يَجْرِي فِي عُرُوقِهَا دَمٌ وَاحِدٌ، وَتَسْرِي فِي أَنْفَاسِهَا رُوحٌ وَاحِدَةٌ...

فَيَتَأَلَّفُ مِنْ هَذَا وَذَاكَ مَا نُسَمِّيهِ بِالحَيَاةِ الْبَشَرِيَّةِ .

وَعَلَىٰ هَذَا ، فَالْإِنْسَانُ مُحْتَاجٌ إِلَىٰ نِظَامٍ كُلِّيٍّ مُتَنَاسِقٍ مُتَكَامِلٍ ... يُنَظِّمُ نَوَاحِيَ حَيَاتِهِ الَّتِي تَنْبُعُ مِنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ ، وَتَتَّجِهُ فِي اتِّجَاهٍ وَاحِدٍ ، وَتَهْدِفُ إِلَىٰ غَايَةٍ وَاحِدَةٍ .

مُحْتَاجٌ إِلَىٰ نِظَامٍ شَامِلٍ جَامِعٍ ... يَبْسُطُ جَنَاحَ صَلَاحِهِ وَإِصْلَاحِهِ عَلَىٰ كُلٍّ مِنَ الحَيَاةِ الْفِكْرِيَّةِ ، وَالِاقْتِصَادِيَّةِ ، وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ ... يَجِدُ فِي كَنَفِهِ مُسْتَقَرًّا ، وَيَرَىٰ فِيهِ لِمُشْكِلَاتِهِ حَلًّا ، وَيَضْمَنُ لَهُ وَلِإِخْوَانِهِ بَنِي الْإِنْسَانِ بُلُوغَ أَقْصَىٰ غَايَتِهِمْ وَنِهَايَةَ أَشْوَاقِهِمْ .

لَقَدْ آنَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَبْرَأَ[1] مِنْ هَذِهِ الرَّجْعِيَّةِ الْفِكْرِيَّةِ الَّتِي يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مَعَهَا أَنَّ فِي الْإِمْكَانِ تَجْزِئَةَ الحَيَاةِ إِلَىٰ فُرُوعٍ وَشُعَبٍ ... وَأَنَّ كُلَّ شُعْبَةٍ تَحْتَاجُ إِلَىٰ دُسْتُورٍ وَطَرِيقَةٍ .

---

(١) يبرأ : يشفى .

نَعَمْ لَقَدْ آنَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْ هَذِهِ الْجَاهِلِيَّةِ الَّتِي تُرِيدُ أَنْ تَنْظُرَ إِلَىٰ مَشَاكِلِ الْإِنْسَانِ وَاحِدَةً وَاحِدَةً ...

وَأَنْ يُقِيمَ مَقَامَهَا عَقْلِيَّةً تُؤْمِنُ أَنَّ كُلَّ حَلٍّ يُوضَعُ لِفَرْعٍ مِنْ فُرُوعِ الْحَيَاةِ الْعَظِيمَةِ فِي نَجْوَةٍ(١) عَنْ مُلَاحَظَةِ الصِّلَةِ الْقَائِمَةِ بَيْنَهَا ... إِنَّمَا هُوَ حَلٌّ مَقْضِيٌّ عَلَيْهِ بِالْفَشَلِ ... وَإِنْ قُدِّرَتْ لَهُ بَارِقَةٌ مِنْ نَجَاحٍ ، فَذَلِكَ إِلَىٰ حِينٍ .

وَهَذَا الدُّسْتُورُ الَّذِي تَرُومُهُ الْإِنْسَانِيَّةُ ، وَتَرْنُو إِلَيْهِ ؛ لَيْسَ دُسْتُوراً لِأُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ فِي زَمَنٍ مُعَيَّنٍ ...

وَإِنَّمَا هُوَ دُسْتُورُ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ .

ذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ مَهْمَا اخْتَلَفَتْ أَجْنَاسُهُمْ ، وَتَبَاعَدَتْ أَوْطَانُهُمْ ، وَتَبَايَنَتْ لُغَاتُهُمْ وَأَلْوَانُهُمْ ... تَجْمَعُهُمُ الْوَحْدَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ الشَّامِلَةُ ، وَيُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ جَوْهَرُهَا النَّقِيُّ الْأَصِيلُ .

---

(١) النجوة : هي المكان المرتفع من الأرض ، كأن الإنسان في هذا المكان لا يصله ما عَلَىٰ الأرض من أحداث .

إِنَّهُمْ مَهْمَا اخْتَلَفُوا فِي مَظَاهِرِ إِنْسَانِيَّتِهِمْ هَذِهِ ... يَلْتَقُونَ عِنْدَ أُصُولِ الْحَيَاةِ الْكُبْرَىٰ، وَيَجْتَمِعُونَ عَلَىٰ أَهْدَافِهَا الْعُظْمَىٰ، وَيُصْدِرُونَ عَنْ قَوَانِينِهَا الثَّابِتَةِ، وَيَتَّجِهُونَ فِي دُرُوبِهَا الْمَرْسُومَةِ ...

مِمَّا يَجْعَلُ مِنَ الضَّرُورَةِ بِمَكَانٍ؛ قِيَامَ نِظَامٍ مُوَحَّدٍ لِلْحَيَاةِ.

وَلَا أَدَلَّ عَلَىٰ تِلْكَ الْحَقِيقَةِ، مِنَ الطَّبِيعَةِ الَّتِي تَحْكُمُ بِقَاعَ الْمَعْمُورَةِ بِنِظَامِهَا الْمُتَجَانِسِ، وَقَوَانِينِهَا الثَّابِتَةِ؛ بِالرَّغْمِ مِنْ جَمِيعِ الْفَوَارِقِ الْجُغْرَافِيَّةِ وَغَيْرِهَا ...

وَعَلَىٰ هَذَا فَالْمَبَادِئُ الَّتِي تُوضَعُ لِسَعَادَةِ الْإِنْسَانِ بِصِفَتِهِ النَّوْعِيَّةِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ عَالَمِيَّةً شَامِلَةً كَافَّةَ الْبَشَرِ.

وَإِذَا كُنَّا نُلَاحِظُ أَنَّ لِلْأُمَمِ بَعْضَ الْخَصَائِصِ الْمُمَيِّزَةِ، فَهِيَ لَا تَعْدُو أَنْ تَكُونَ فَرْعاً لَا أَصْلاً، وَعَلَىٰ الْأُمَّةِ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ أَنْ تُنَظِّمَ شُئُونَ حَيَاتِهَا الْفَرْعِيَّةَ بِالطُّرُقِ الَّتِي تَتَنَاسَبُ مَعَ أَوْضَاعِهَا الْخَاصَّةِ، وَذَلِكَ فِي

إِطَارِ المَبَادِئ الْإِنْسَانِيَّةِ الْعَامَّةِ ، وَتَحْتَ لِوَائِهَا .

* * *

هَذَا وَإِنَّ مِمَّا يَأْبَاهُ العَقْلُ ؛ أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ الصَّرِيحُ عِنْدَ أُمَّةٍ بَاطِلاً عِنْدَ أُخْرَىٰ ...

وَأَنْ يَكُونَ البَاطِلُ الْمُفْسِدُ لِشَعْبٍ ؛ حَقًّا صَالِحاً عِنْدَ شَعْبٍ آخَرَ ...

وَأَنْ يَكُونَ النِّظَامُ الْعَادِلُ الشَّامِلُ المُبْدِعُ المُنْتِجُ فِي قُطْرٍ ... أَدَاةً لِتَعْوِيقِ الْحَيَاةِ ، وَشَلِّ التَّقَدُّمِ فِي قُطْرٍ آخَرَ .

وَمَا يُقَالُ عَنِ الْأَجْنَاسِ وَالْأَوْطَانِ ... يُقَالُ أَيْضاً عَنِ الْعُصُورِ وَالْأَزْمَانِ ، فَالنِّظَامُ الَّذِي يَكُونُ يَنْبُوعَ خَيْرٍ وَسَعَادَةٍ لِلْبَشَرِ فِي عَصْرٍ مِنَ الْعُصُورِ ...

لَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْقَلِبَ إِلَىٰ شَرٍّ ، وَمَبْعَثِ خَيْبَةٍ فِي عَصْرٍ آخَرَ .

فَالْإِنْسَانُ السَّالِكُ طَرِيقَهُ عَبْرَ التَّارِيخِ ، رَغْمَ تَغَيُّرِ

مَعَالِـمِ طَرِيقِهِ، وَتَبَدُّلِ الْمَشَاهِدِ الَّتِي رَأَتْهَا عَيْنَاهُ ... لَا يَزَالُ هُوَ هُوَ، لَمْ يَتَغَيَّرْ فِي جَوْهَرِهِ شَيْءٌ.

إِنَّهُ كَمَا كَانَ فِي الزَّمَنِ الْغَابِرِ ... فِي قُوَاهُ وَمَلَكَاتِهِ[١]، وَمُيُولِهِ وَاسْتِعْدَادَاتِهِ، وَفِطْرَتِهِ وَنَزَعَاتِهِ، وَفِعْلِهِ وَانْفِعَالِهِ، وَتَأَثُّرِهِ وَتَأْثِيرِهِ، وَالْقُوَىٰ الْحَاكِمَةِ عَلَيْهِ، وَالْعَامِلَةِ فِيهِ ...

وَعَلَىٰ هَذَا فَمَا قَوْلُكَ بِمَنْ يَدَّعِي أَنَّ مَا كَانَ بِالْأَمْسِ تِرْيَاقاً شَافِياً؛ أَصْبَحَ الْيَوْمَ سُمًّا نَاقِعاً[٢]؟.

وَمَا رَأْيُكَ فِي هَذِهِ النُّظُمِ الْمُتَجَدِّدَةِ الَّتِي يَضَعُهَا الْإِنْسَانُ؛ لِيَمْتَحِنَهَا مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَىٰ ...

فَيُضَيِّعَ بِهَا مَجْهُودَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ الضَّخْمَةَ، وَيُعَوِّقَ بِهَا طَرِيقَ تَقَدُّمِ رَكْبِهَا الْعَظِيمِ.

فَالْإِنْسَانِيَّةُ عَلَىٰ هَذَا فِي حَاجَةٍ إِلَىٰ نِظَامٍ مُسْتَقِرٍّ

---

(١) ملكاته: صفاته الراسخة فيه. (٢) سماً ناقعاً: سماً قاتلاً، مهلكاً.

ثَابِتٍ يَرْبِطُ حَاضِرَهَا بِمَاضِيهَا، وَيَفِيدُ آخِرُهَا مِنْ أَوَّلِهَا ...

وَيُمَكِّنُ الْإِنسَانِيَّةَ مِنِ اقْتِحَامِ غَمَرَاتِ الْحَيَاةِ فِي حَاضِرِهَا وَمُسْتَقْبَلِهَا ...

هَذَا الْمِنْهَاجُ، هُوَ الَّذِي نُرِيدُ أَنْ نَسَمِّيَهُ بِالدِّينِ ...

وَنَحْنُ لَا نُرِيدُ بِالدِّينِ نِظَاماً تَفْصِيلِياً يُحِيطُ بِكُلِّ دَقِيقٍ وَجَلِيلٍ مِنْ فُرُوعِ الْحَيَاةِ ...

وَإِنَّمَا نُرِيدُ بِهِ تِلْكَ الْمَبَادِئَ الْعَالَمِيَّةَ الْخَالِدَةَ الَّتِي لَا تَتَغَيَّرُ وَلَا تَزُولُ ... وَالَّتِي يُمْكِنُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَهْتَدِيَ بِهَدْيِهَا، وَيَسْتَضِيءَ بِنُورِهَا، فِي جَمِيعِ مَا يَطْرَأُ عَلَيْهِ مِنَ الْحَوَادِثِ وَالْأَحْوَالِ.

نُرِيدُ بِهِ تِلْكَ الْمَبَادِئَ الَّتِي تُحَدِّدُ وِجْهَةَ الْإِنْسَانِ وَكِفَاحَهُ ...

وَتَرْسُمُ لَهُ الصِّرَاطَ السَّوِيَّ لِتَقَدُّمِهِ وَتَطَوُّرِهِ ...

وَتَحْفَظُهُ مِنَ التَّخَبُّطِ فِي مَيَادِينِ الْوَهْمِ وَالضَّلَالِ ... وَتَعْصِمُهُ مِنْ إِضَاعَةِ جُهُودِهِ فِي تَجَارِبَ فَاشِلَةٍ.

فَلْنَنْظُرْ بَعْدَ ذَلِكَ لِنَرَىٰ فِيمَا إِذَا كَانَ بِاسْتِطَاعَةِ الْإِنْسَانِ أَنْ يَضَعَ لِنَفْسِهِ دِينَهُ هَذَا الَّذِي أَرَدْنَاهُ ... وَهَلْ تُؤَهِّلُهُ إِمْكَانِيَّاتُهُ، لِلنَّجَاحِ فِي مُهِمَّتِهِ الْخَطِيرَةِ هَذِهِ؟ ...

* * *

إِنَّ الْقُوَىٰ الَّتِي سَيَعْتَمِدُ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ فِي عَمَلِهِ هَذَا ... هِيَ:

الرَّغَبَاتُ، وَالْعَقْلُ، وَالْعِلْمُ، وَالتَّارِيخُ.

أَمَّا الرَّغَبَاتُ وَالْأَهْوَاءُ، فَهِيَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَكُونَ هَادِيَةً لِلْبَشَرِ؛ لِمَا فِيهَا مِنْ عَوَامِلِ الضَّعْفِ وَالتَّقَلُّبِ، وَلِمَا يَعْتَوِرُهَا[١] مِنْ عَنَاصِرِ التَّأَثُّرِ بِالْمُؤَثِّرَاتِ الضَّيِّقَةِ ...

---

(١) التعاور: هو التعاطي والتداول، يقال تعاورت الرياح رسم الدار، أي تداولته، فهبت عليه مراراً كل مرة من ناحية.

وَلِأَنَّهَا لَا تَعْرِفُ لِنَفْسِهَا طَرِيقاً مَرْسُومَةً ، فَكَيْفَ تَرْسُمُ الطَّرِيقَ لِلنَّاسِ ؟.

وَأَمَّا الْعَقْلُ الَّذِي لَا جِدَالَ فِي قِيمَتِهِ وَاسْتِعْدَادَاتِهِ ، فَهُوَ عَلَىٰ جَلَالِهِ وَكَمَالِهِ ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْهَضَ بِهَذَا الْعِبْءِ ...

وَكَيْفَ يَتَمَكَّنُ مِنْ ذَلِكَ ؟ ...

وَأَحْكَامُهُ مَبْنِيَّةٌ عَلَىٰ الحَوَاسِّ ...

وَالحَوَاسُّ خَطَّاءَةٌ نَاقِصَةٌ ...

أَضِفْ إِلَىٰ ذَلِكَ أَنَّ عُنْصُرَ الْهَوَىٰ مُلَازِمٌ لِلْعَقْلِ ، قَلَّمَا يُفَارِقُهُ ، وَهُوَ يَحُولُ دُونَهُ وَدُونَ الْحُكْمِ الْخَالِصِ الصَّائِبِ فِي أَغْلَبِ الْأَحْيَانِ ...

ثُمَّ هَبْ أَنَّنَا أَنَطْنَا[1] بِالْعَقْلِ أَمْرَ وَضْعِ هَذَا الدِّينِ ...

---

(١) ناط الشيء بالشيء : علَّقه عليه .

فَهَلْ نَكِلُهُ[1] إِلَىٰ عَقْلِ زَيْدٍ مِنَ النَّاسِ؟ ...

أَمْ عَقْلِ عَمْرٍو؟ ...

وَهَلْ نَتْرُكُهُ إِلَىٰ عُقُولِ الْبَشَرِ جَمِيعاً؟ ...

أَمْ نَخُصُّ بِهِ طَائِفَةً مِنَ النَّاسِ؟ ...

وَهَلْ نَعْتَمِدُ فِي ذَلِكَ عَلَىٰ عَقْلِ الَّذِينَ سَبَقُونَا؟ ...

أَمْ عَقْلِ الَّذِينَ سَيَأْتُونَ مِنْ بَعْدِنَا؟.

إِنَّهَا أَسْئِلَةٌ كَثِيرَةٌ، لَنْ نَخْرُجَ مِنْهَا إِلَّا بِجَوَابٍ وَاحِدٍ ...

هُوَ عَجْزُ هَذَا الْعَقْلِ عَنِ الْقِيَامِ بِهَذِهِ الْمُهِمَّةِ أَيْضاً.

* * *

وَأَمَّا الْعِلْمُ الْقَائِمُ عَلَىٰ التَّجْرِبَةِ وَالْمُشَاهَدَةِ، فَهُوَ شَيْءٌ يَسْتَحِقُّ التَّقْدِيرَ أَعْظَمَ التَّقْدِيرِ ...

---

(١) وكل الأمر إِلَىٰ فلان: سلمه له وتركه وفوضه إليه واكتفىٰ به.

بَيْدَ أَنَّهُ مَعَ صِدْقِ تَجْرِبَتِهِ ، قَاصِرٌ عَنْ بُلُوغِ المَرْتَبَةِ الَّتِي تُمَكِّنُهُ مِنْ وَضْعِ هَذَا الدِّينِ الَّذِي مِنْ مُهِمَّتِهِ أَنْ يُحَدِّدَ الْبِدَايَاتِ وَالنِّهَايَاتِ ...

تِلْكَ النِّهَايَاتُ الَّتِي لَا يُمْكِنُ لِلْعِلْمِ أَنْ يَحْكُمَ فِيهَا بِرَأْيٍ قَطُّ ... لِأَنَّهَا لَا تَقَعُ تَحْتَ تَجْرِبَتِهِ ، وَلَا تَمْتَدُّ إِلَيْهَا عَيْنُ مُشَاهَدَتِهِ .

* * *

وَأَمَّا التَّارِيخُ ، فَهُوَ أَعْجَزُ مِنْ أَنْ يَقُومَ بِهَذِهِ المُهِمَّةِ ... بَعْدَ أَنْ قَصُرَ عَنْهَا العَقْلُ وَالْعِلْمُ .

فَحَوَادِثُهُ لَمْ تُنْقَلْ إِلَيْنَا كُلُّهَا ، وَمَا نُقِلَ إِلَيْنَا مِنْهَا جَاءَ مُشَوَّهاً ... شَوَّهَتْهُ الأَغْرَاضُ وَالأَهْوَاءُ .

* * *

مِنْ هَذَا يَتَّضِحُ لَنَا أَنَّ الْإِنْسَانَ بِنَزَعَاتِهِ وَأَهْوَائِهِ ، وَعِلْمِهِ وَعَقْلِهِ ، وَبِمَا تَنَاقَلَهُ مِنْ أَخْبَارِ الْمَاضِينَ

وَتَجَارِبِهِمْ ... عَاجِزٌ كُلَّ الْعَجْزِ عَنْ أَنْ يَضَعَ هَذَا الدِّينَ الْعَامَّ الشَّامِلَ الصَّالِحَ لِلْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا ، فِي سَائِرِ أَجْيَالِهَا وَأَوْطَانِهَا ...

فَمَنِ الَّذِي يَضَعُ لِلْإِنْسَانِيَّةِ إِذَنْ دِينَهَا ؟ ...

وَيَرْسُمُ لِلْبَشَرِيَّةِ دُرُوبَهَا ؟ ...

إِنَّهُ اللَّهُ ...

اللَّهُ الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ، ثُمَّ هَدَىٰ .

* * *

فَالطَّرِيقُ الْأَقْوَمُ لِلْبَشَرِيَّةِ ، هُوَ أَنْ تَتَجَرَّدَ مِنْ أَنَانِيَّتِهَا ...

وَتَتَخَلَّصَ مِنَ الِاغْتِرَارِ بِنَفْسِهَا ...

وَأَنْ تُسْلِمَ وَجْهَهَا لِلَّهِ ...

وَأَنْ تَتَّبِعَ الدِّينَ الْقَيِّمَ الَّذِي ارْتَضَاهُ لِعِبَادِهِ نِظَاماً فِي

الْحَيَاةِ، وَإِصْلَاحاً لِلْمُجْتَمَعِ، وَطُهْراً لِلنَّفْسِ، وَتَزْكِيَةً لِلرُّوحِ.

ذَلِكَ الدِّينُ الَّذِي جَاءَ بِطَرِيقِ أَنْبِيَائِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، يُتِمُّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ رِسَالَةَ سَابِقِهِ...

وَيَعْمَلُونَ جَمِيعاً عَلَىٰ الْأَخْذِ بِيَدِ الْإِنسَانِيَّةِ الْحَائِرَةِ، إِلَىٰ سَاحَةِ الطُّمَأْنِينَةِ وَالِاسْتِقْرَارِ وَالْإِسْلَامِ.

* * *

الـمُسَاوَاةُ

فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ لِلْهِجْرَةِ ، وَفِي شَهْرِ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ دَخَلَ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ ﷺ مَكَّةَ فَاتِحاً ، فَقَضَىٰ عَلَىٰ آخِرِ حِصْنٍ مِنْ حُصُونِ الشِّرْكِ فِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ .

وَعَادَ الْمُهَاجِرُونَ إِلَىٰ دِيَارِهِمُ الَّتِي أُخْرِجُوا مِنْهَا ، وَاكْتَحَلَتْ عُيُونُهُمْ بَعْدَ شَوْقٍ طَوِيلٍ بِمَرْأَىٰ مَلَاعِبِ طُفُولَتِهِمْ ، وَمَغَانِي[1] شَبَابِهِمْ ...

وَقَرَّتْ[2] أَفْئِدَتُهُمْ بِمَا تَوَّجَ اللَّهُ بِهِ جِهَادَهُمْ مِنْ نَصْرٍ .

* * *

---

(١) مغاني الشباب : منازل الشباب ، والديار التي بدءوا حياتهم فيها .
(٢) قرت أفئدتهم : هدأت واطمأنت .

وَخَرَجَ الرَّسُولُ الْعَظِيمُ إِلَىٰ الكَعْبَةِ ، لِيُحَطِّمَ بِيَدَيْهِ القَوِيَّتَيْنِ مَا حَوْلَهَا مِنْ أَصْنَامٍ [١]، وَلِيُزِيلَ مِنْ تِلْكَ الجَزِيرَةِ آخِرَ غُلٍّ[٢] مِنْ أَغْلَالِ الْعَقْلِ ...

وَوَقَفَ أَمَامَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَهُوَ يُرَدِّدُ :

(لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، صَدَقَ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ) .

ثُمَّ طَافَ حَوْلَهَا سَبْعاً ، حَتَّىٰ إِذَا أَتَمَّ طَوَافَهُ دَعَا عُثْمَانَ بْنَ طَلْحَةَ فَأَخَذَ مِنْهُ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ ، وَدَعَا بِلَالاً[٣] إِلَىٰ الصُّعُودِ إِلَىٰ ظَهْرِهَا لِيُؤَذِّنَ فِي النَّاسِ مُعْلِناً أَنَّ دَوْلَةَ الشِّرْكِ قَدْ دَالَتْ[٤]، وَأَنَّ شِرْعَةَ الحَقِّ وَالْعَدْلِ قَدْ قَامَتْ .

وَبِلَالٌ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ أَسْوَدُ ، وَمَوْلىً مِنْ مَوَالِي

---

(١) انظر هدم الأصنام في كتاب « حدث في رمضان » للمؤلف .
(٢) الغُل : القيد .
(٣) بلال بن رباح : انظره في كتاب « صور من حياة الصَّحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .
(٤) دالت : بادت .

قُرَيْشٍ ، يَقِفُ فِي يَوْمِ النَّصْرِ الْأَعْظَمِ ، لِيُعْلِنَ صَوْتَ الحَقِّ الْأَعْظَمِ وَسْطَ مَكَّةَ الَّتِي سَامَتْهُ مِنْ قَبْلُ سُوءَ الْعَذَابِ . وَعَلَىٰ(١) ظَهْرَ الْكَعْبَةِ ...

فَهَوَتْ أَفْئِدَةُ قُرَيْشٍ ...

وَاشْرَأَبَّتْ(٢) أَعْنَاقُ الْقَوْمِ ...

لِتَرَىٰ هَذَا المَشْهَدَ ... وَقُلُوبُهُمْ تَكَادُ تَنْفَطِرُ(٣) مِنَ الْغَيْظِ .

فَقَالَ عَتَّابُ بْنُ أُسَيْدٍ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَبَضَ أَبِي حَتَّىٰ لَا يَرَىٰ هَذَا الْيَوْمَ .

وَقَالَ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ :

أَمَا وَجَدَ مُحَمَّدٌ غَيْرَ هَذَا الْغُرَابِ الْأَسْوَدِ مُؤَذِّناً ؟!.

---

(١) علىٰ ظهر الكعبة : وقف علىٰ ظهرها .
(٢) اشرأبت : ارتفعت لتنظر .
(٣) تنفطر : تنشق من الغيظ وتتقطع .

وَدَارَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ أَبِي سُفْيَانَ حَدِيثٌ طَوِيلٌ، وَهَمَسُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ بِهَذِهِ الأَسْئِلَةِ:

مَا بَالُ مُحَمَّدٍ يُسَوِّدُ الْعَبِيدَ الَّذِينَ كَانَتْ تُلْهَبُ ظُهُورَهُمْ بِالسِّيَاطِ؟.

وَمَا شَأْنُ هَذِهِ الدَّعْوَةِ الَّتِي تُسَوِّي بَيْنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَالأَقْوِيَاءِ؟.

وَعَرَفَ الرَّسُولُ الْعَظِيمُ ﷺ مَا يَتَلَجْلَجُ[1] فِي صُدُورِ الْقَوْمِ ... وَنَزَلَ الْوَحْيُ مِنَ السَّمَاءِ، وَدَوَّتْ شِعَابُ مَكَّةَ بِأَعْظَمِ نِدَاءٍ رَدَّدَتْ أَصْدَاءَهُ جَنَبَاتُ الْكَوْنِ:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[2].

* * *

---

(١) يتلجلج: يتحرك في صدورهم، ولا يظهرونه.
(٢) سورة الحجرات: آية ١٣.

انْطَلَقَ ذَلِكَ الصَّوْتُ يَحْمِلُ إِلَىٰ الـمُعَذَّبِينَ فِي الْأَرْضِ الْعَزَاءَ وَالسَّلْوَةَ ...

وَيَسُوقُ إِلَىٰ الـمُسْتَضْعَفِينَ الْحُرِّيَةَ وَالْكَرَامَةَ ...

وَيَرُدُّ إِلَىٰ الْإِنْسَانِ إِنْسَانِيَّتَهُ الـمَسْلُوبَةَ ...

وَبِمِقْدَارِ مَا نَشَرَ هَذَا الصَّوْتُ فِي تِلْكَ النُّفُوسِ الظَّامِئَةِ إِلَىٰ الـحُرِّيَّةِ وَالْـمُسَاوَاةِ مِنْ رَاحَةٍ وَطُمَأْنِينَةٍ ، مَلأَ قُلُوبَ فَرَاعِنَةِ الْأَرْضِ هَلَعاً عَلَىٰ سُلْطَانِهِمُ الزَّائِلِ ، وَأَفْعَمَ(١) أَفْئِدَةَ أَصْحَابِ الْعُرُوشِ رُعْباً عَلَىٰ عُرُوشِهِمُ الـمُنْهَارَةِ .

وَأَخَذَ الرَّسُولُ الْعَظِيمُ ﷺ يُرَدِّدُ هَذَا الـمَعْنَىٰ وَيُؤَكِّدُهُ فَيَقُولُ : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، الرَّبُّ وَاحِدٌ ، وَالْأَبُ وَاحِدٌ ، كُلُّكُمْ لِآدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ) .

وَكَانَ أَنْ غَيَّرَ هَذَا الصَّوْتُ مَفَاهِيمَ الْـحَيَاةِ الْـجَاهِلِيَّةِ

---

(١) أفعم القلوب رعباً : ملأها بالرعب والخوف .

الَّتي كَانَ يَحْيَاهَا الْعَرَبُ، وَغَيْرُ الْعَرَبِ مِنَ الْفُرْسِ وَالرُّومَانِ، فَسَوَّىٰ بَيْنَ النَّاسِ فِي الحُقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ، وَوَحَّدَ بَيْنَهُمْ أَمَامَ الْقَضَاءِ.

وَلَمْ يُمَيِّزْ أَبْيَضَ عَلَىٰ أَسْوَدَ، وَلَا عَرَبِيًّا عَلَىٰ عَجَمِيٍّ...

وَإِنَّمَا جَعَلَهُمْ سَوَاسِيَةً كَأَسْنَانِ المُشْطِ...

* * *

وَيَشَاءُ اللَّهُ أَنْ تُخْتَبَرَ هَذِهِ الدَّعْوَةُ إِلَىٰ المُسَاوَاةِ وَهِيَ فِي مَهْدِهَا(١)، فَتَسْرِقُ امْرَأَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ... وَقُرَيْشٌ سَادَةُ الْعَرَبِ يَأْمُرُونَ فَيُطَاعُونَ، وَيَشْفَعُونَ فَيُشَفَّعُونَ...

وَيُرِيدُ الرَّسُولُ العَظِيمُ ﷺ أَنْ يُقِيمَ عَلَيْهَا الْحَدَّ...

وَتَتَمَلْمَلُ(٢) قُرَيْشٌ وَتَتَحَرَّكُ، بَيْدَ أَنَّهَا لَا تَجْرُؤُ

---

(١) مهدها: فراش طفولتها، ومهد الدعوة بدايتها.

(٢) تتململ: تتقلب وتتحرك غمًّا مما جاء به.

عَلَىٰ مُفَاتَحةِ الرَّسُولِ ﷺ فِي ذَلِكَ ، كَمَا أَنَّهَا لَا تُرِيدُ أَنْ تَسْتَسْلِمَ إِلَىٰ الْوَاقِعِ الْجَدِيدِ وَتُقَدِّمَ يَدَ بِنْتٍ مِنْ بَنَاتِهَا لِتُقْطَعَ ...

فَأَرْسَلَتْ إِلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ[١] وَهُوَ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ وَابْنُ حِبِّهِ ، لِيَسْتَشْفِعَهُ فِي الْقُرَشِيَّةِ ...

فَارْبَدَّ وَجْهُ الرَّسُولِ ﷺ ، وَغَضِبَ غَضَباً شَدِيداً ، وَرَدَّ أُسَامَةَ رَدًّا حَازِماً وَقَالَ لَهُ :

(أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ؟ إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ قَطَعُوهُ ...

وَأَيْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ[٢] بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا) .

* * *

---

(١) أسامة بن زيد : انظره في كتاب « صور من حياة الصَّحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٢) فاطمة الزهراء : انظرها في كتاب « صور من حياة الصَّحابيات » للمؤلف .

وَخَرَجَ أُسَامَةُ نَادِماً عَلَىٰ مَا فَعَلَ ، وَأَدْرَكَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَىٰ المُسَاوَاةِ جِدٌّ لَا هَزْلَ فِيهِ .

وَحَقَّقَ الرَّسُولُ الْعَظِيمُ ﷺ بِأَفْعَالِهِ مَا دَعَا إِلَيْهِ فِي أَقْوَالِهِ ، وَبَدَأَ النَّاسُ يَشْعُرُونَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي تَارِيخِ الْإِنْسَانِيَّةِ أَنَّهُمْ سَوَاءٌ أَمَامَ الْقَانُونِ .

وَسَارَ أَصْحَابُ الرَّسُولِ ﷺ وَخُلَفَاؤُهُ مِنْ بَعْدِهِ عَلَىٰ هَدْيِهِ ، وَجَعَلُوا قِوَامَ حُكْمِهِمْ هَذِهِ المُسَاوَاةَ بَيْنَ النَّاسِ ، لَا يُبَالُونَ فِي ذَلِكَ عَظِيماً أَوْ كَبِيراً .

* * *

فَلَقَدْ أَسْلَمَ جَبَلَةُ بْنُ الْأَيْهَمِ الْأَمِيرُ الغَسَّانِيُّ مَعَ أَشْرَافِ قَوْمِهِ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ... فَاحْتَفَىٰ بِهِ وَبِقَوْمِهِ وَأَكْرَمَ وِفَادَتَهُمْ عَلَيْهِ ، وَصَادَفَ قُدُومُهُمْ عَلَيْهِ مَوْسِمَ الْحَجِّ ، فَخَرَجُوا جَمِيعاً لِأَدَاءِ الْفَرِيضَةِ ...

وَبَيْنَمَا كَانَ « جَبَلَةُ » يَطُوفُ حَوْلَ الْكَعْبَةِ وَطِئَ[1] إِزَارَهُ[2] رَجُلٌ مِنْ بَنِي « فَزَارَةَ » فَحَلَّهُ...

فَاغْتَاظَ الْأَمِيرُ الْغَسَّانِيُّ وَضَرَبَ الْفَزَارِيَّ وَهَشَّمَ أَنْفَهُ، فَاشْتَكَىٰ إِلَىٰ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ...

فَأَتَىٰ « بِجَبَلَةَ » وَقَالَ لَهُ: يَا جَبَلَةُ إِمَّا أَنْ تُرْضِيَ خَصْمَكَ، وَإِمَّا أَنْ يَضْرِبَكَ كَمَا ضَرَبْتَهُ...

فَدَهِشَ « جَبَلَةُ » وَقَالَ: أَوَ تُسَوِّي بَيْنَ الْمَلِكِ وَالسُّوقَةِ؟!

فَقَالَ عُمَرُ: « الْإِسْلَامُ قَدْ سَوَّىٰ بَيْنَكُمَا ».

فَاسْتَمْهَلَهُ « جَبَلَةُ »، فَأَمْهَلَهُ عُمَرُ... فَلَمَّا أَظْلَمَ اللَّيْلُ فَرَّ هَارِباً وَالْتَحَقَ بِالرُّومِ، وَلَمْ تُطِقْ نَفْسُهُ صَبْراً عَلَىٰ الْمُسَاوَاةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ وَاحِدٍ مِنْ عَامَّةِ النَّاسِ.

---

(١) وطئ: داسه بقدمه.
(٢) الإزار: ثوب يلف عَلَىٰ النصف الأسفل من الجسم.

انْطَلَقَ « جبَلَةُ » إِلَىٰ الرُّومِ فَخَسِرَ نَفْسَهُ ... بَيْنَمَا كَسَبَتْ دَعْوَةُ الْإِسْلَامِ رُسُوخاً وَتَأْيِيداً .

*   *   *

وَلَمْ يُطَبِّقْ عُمَرُ هَذِهِ المُسَاوَاةَ عَلَىٰ النَّاسِ فَحَسْبُ ، وَإِنَّمَا أَخَذَ بِهَا نَفْسَهُ ...

وَذَلِكَ حِينَ تَوَجَّهَ إِلَىٰ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لِيَعْقِدَ مُعَاهَدَةَ الصُّلْحِ مَعَ بَطَارِقَةِ الْكَنِيسَةِ ، وَلَيْسَ مَعَهُ إِلَّا عَبْدُهُ ، وَبَعِيرٌ وَاحِدٌ يَتَنَاوَبَانِ رُكُوبَهُ ...

فَيَرْكَبُ عُمَرُ سَاعَةً وَيَقُودُهُ الْعَبْدُ ، وَيَرْكَبُ الْعَبْدُ سَاعَةً وَيَقُودُهُ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ ...

وَدَخَلَا بَيْتَ المَقْدِسِ وَكَانَ الْعَبْدُ رَاكِباً وَعُمَرُ يُمْسِكُ بِزِمَامِ(١) البَعِيرِ .

لَمْ يَقُدْ عُمَرُ البَعِيرَ لِعَبْدِهِ فَحَسْبُ ، وَإِنَّمَا ضَرَبَ

---

(١) زمام البعير : الحبل الذي يقاد به البعير.

لِلنَّاسِ أَرْوَعَ الْأَمْثَالِ فِي الـمُسَاوَاةِ ، وَانْتَقَلَ الـخَبَرُ إِلَىٰ أُمَـمِ الْأَرْضِ لِيُعْلِنَ لِلنَّاسِ ...

أَنَّ نُوراً جَدِيداً قَدِ انْبَثَقَ مِنْ بَطْحَاءِ مَكَّةَ ...

وَأَنَّ دَعْوَةً جَدِيدَةً قَدِ انْطَلَقَتْ مِنْ شِعَابِهَا ...

لِتُلْغِيَ نِظَامَ الطَّبَقَاتِ .

أَلْغَتْهُ بَيْنَ الـمُسْلِمِينَ أَنْفُسِهِمْ حِينَ قَالَ الرَّسُولُ الْعَظِيمُ ﷺ :

(الـمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ ، وَيَسْعَىٰ بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ) .

وَأَلْغَتْهُ بَيْنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِ الْعَرَبِ حِينَ قَالَ أَيْضاً :

(لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَىٰ عَجَمِيٍّ ، وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَىٰ أَبْيَضَ إِلَّا بِالتَّقْوَىٰ) .

وَأَلْغَتْهُ بَيْنَ الـمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ ، حِينَ نَادَىٰ عُمَرُ :

« أَنَّ لَهُمْ مَا لَنَا وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْنَا » .

وَأَلْغَتْهُ بَيْنَ السَّادَةِ وَالْعَبِيدِ ، حِينَ عَمِلَتْ عَلَىٰ تَصْفِيَةِ نِظَامِ الرِّقِّ السَّائِدِ فِي الْعَالَمِ ...

وَفِيمَا هِيَ فِي صَدَدِ تَصْفِيَتِهِ ، أَمَرَتْ بِإِحْسَانِ مُعَامَلَةِ الْأَرِقَّاءِ ، وَنَهَتْ عَنْ أَنْ يُسَمَّىٰ الْعَبْدُ عَبْداً ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ :

(إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبِسُ ... وَلَا يَقُلْ عَبْدِي وَلَا أَمَتِي ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي) .

* * *

فَإِلَىٰ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ مِمَّنْ أَعْشَىٰ بَصَرَهُمْ بَرِيقُ الْحَضَارَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْكَاذِبَةِ ...

وَغَرَّ آمَالَهُمْ سَرَابُهَا الْخَادِعُ ...

نَسُوقُ هَذَا الْحَدِيثَ، لِيَرَوُا الْفَارِقَ الْعَظِيمَ بَيْنَ مَدَنِيَّةِ الْإِسْلَامِ الَّتِي فَاضَتْ بِالبِرِّ وَالْخَيْرِ عَلَىٰ النَّاسِ... وَبَيْنَ مَبَادِئِ الثَّوْرَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ الَّتِي تُذْبَحُ فِي بِلَادِ الْجَزَائِرِ بِيَدِ الْفَرَنْسِيِّينَ...

وَلِيَجِدُوا الْبَوْنَ شَاسِعاً بَيْنَ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ إِلَىٰ الْمُسَاوَاةِ... وَبَيْنَ مَبَادِئَ الْحُرِّيَّةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ، الَّتِي لَا يَنْعَمُ بِهَا الْمُلَوَّنُونَ الْأَمْرِيكِيُّونَ أَنْفُسُهُمْ.

فَمَا أَحْوَجَ فَرَنْسَا إِلَىٰ ابْنِ خَطَّابٍ جَدِيدٍ، يَصُكُّ[1] آذَانَهَا بِقَوْلَتِهِ الْخَالِدَةِ:

«مَتَىٰ اسْتَعْبَدْتُمُ النَّاسَ وَقَدْ وَلَدَتْهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ أَحْرَاراً»...

عَلَّهَا كَفَّتْ عَنْ بَغْيِهَا وَعُدْوَانِهَا عَلَىٰ إِخْوَانِنَا عَرَبِ الْجَزَائِرِ...

وَمَا أَحْوَجَ الْمُلَوَّنِينَ فِي أَمْرِيكَا إِلَىٰ مُحَمَّدٍ جَدِيدٍ،

---

(١) يَصُك آذانها: يلطمها لطمة شديدة، أو يختم عليها بصك لَا يمحىٰ.

لِيُرَدِّدَ الصَّرْخَةَ الدَّاوِيَةَ ، الَّتي أَطْلَقَهَا مُنْذُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْناً أَوْ تَزِيدُ :

(أَنْ لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَىٰ عَجَمِيٍّ ، وَلَا لِأَبْيَضَ عَلَىٰ أَسْوَدَ وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَىٰ أَبْيَضَ) ...

عَلَّهُمْ يَسْتَرِدُّونَ إِنْسَانِيَّتَهُمُ المَسْلُوبَةَ .

وَمَا أَحْوَجَنَا نَحْنُ المُسْلِمِينَ إِلَىٰ دِينِنَا ...

عَلَّنَا نَسْتَعِيدُ مَجْداً أَضَعْنَاهُ .

* * *

الـحَاكِمُ وَالـمَحْكُومُ

نَقَلَ الْإِسْلَامُ سُكَّانَ الْجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ نَقلَةً بَعِيدَةً فِي الشُّعُورِ وَالسُّلُوكِ ...

وَغَيَّرَ الدِّينُ الْجَدِيدُ مَفَاهِيمَ الْحَيَاةِ وَمُثُلَهَا تَغْيِيراً شَامِلاً ، لَا فِي دُنْيَا الْعَرَبِ فَحَسْبُ ...

وَإِنَّمَا فِي أَنْحَاءِ المَعْمُورَةِ الَّتِي أَظَلَّتْهَا رَايَاتُهُ ، وَامْتَدَّتْ إِلَيْهَا إِشْعَاعَاتُهُ .

وَإِنَّهُ لَيَصْعُبُ عَلَيْنَا أَنْ نَسْتَعْرِضَ هَذَا الِانْقِلَابَ الْعَظِيمَ فِي شَتَّى صُوَرِهِ وَمُخْتَلِفِ مَنَاحِيهِ .

وَإِنَّمَا حَسْبُنَا الْيَوْمَ أَنْ نَتَنَاوَلَ جَانِباً مِنْ جَوَانِبِ هَذَا الِانْقِلَابِ الْكَبِيرِ ...

أَلَا وَهُوَ نَظْرَةُ الْحَاكِمِينَ إِلَىٰ الْمَحْكُومِينَ ...

وَنَظْرَةُ الْمَحْكُومِينَ إِلَىٰ الْحَاكِمِينَ ...

وَمَفْهُومُ الْحُكْمِ عِنْدَ كِلَيْهِمَا .

وَلَنْ نَتْرُكَ ذَلِكَ فِي حَيِّزِ النَّظَرِيَّاتِ الْمُجَرَّدَةِ ، وَإِنَّمَا سَنُجَسِّدُهُ[1] فِي شَخْصِيَّاتٍ وَوَقَائِعَ ، وَسَنُوَضِّحُهُ فِي نَمَاذِجَ إِنْسَانِيَّةٍ عَاشَتْ ، وَفِي سُلُوكٍ عَمَلِيٍّ تَحَقَّقَ ، ثُمَّ تَرَكَ آثَارَهُ وَاضِحَةً جَلِيَّةً فِي وَاقِعِ الْحَيَاةِ وَأَطْوَارِ التَّارِيخِ .

* * *

لَقَدْ نَظَرَ الْحَاكِمُونَ إِلَىٰ الْحُكْمِ عَلَىٰ أَنَّهُ مِحْنَةٌ[2] لِلْحَاكِمِ وَمِنْحَةٌ لِلْمَحْكُومِ ...

وَآمَنُوا أَنَّ الْوِلَايَةَ تَكْلِيفٌ لَا تَشْرِيفٌ ...

وَمَغْرَمٌ لَا مَغْنَمٌ ...

فَاسْتَشْعَرُوا ثِقَلَ الْبَيْعَةِ الْمُلْقَاةِ عَلَىٰ عَوَاتِقِهِمْ ...

---

(١) نجسده : نجعله مجسداً ممثلاً .   (٢) محنة : اختبار وابتلاء .

وَأَحَسُّوا إِحْسَاساً يَنْبُعُ مِنْ أَعْمَاقِهِمْ أَنَّ اللَّهَ إِنَّمَا ابْتَلَاهُمْ فِيمَا اسْتَوْدَعَهُمْ مِنْ شُئُونِ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ .

وَلَا أَدَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ مِنْ مَوْقِفِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ... حِينَ أَحَسَّ بِدُنُوِّ أَجَلِهِ وَجَاءَ بَعْضُهُمْ يُزَيِّنُ لَهُ أَنْ يَجْعَلَ الْخِلَافَةَ فِي ابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ ...

إِذْ قَالَ لَهُ : « لَا أَرَبَ[1] لَنَا فِي أُمُورِكُمْ ، وَمَا حَمَدْتُ[2] الْخِلَافَةَ حَتَّىٰ أَرْغَبَ[3] فِيهَا لِأَحَدٍ مِنْ بَيْتِي ... إِنْ كَانَ فِيهَا خَيْرٌ فَقَدْ أَصَبْنَا مِنْهُ ، وَإِنْ كَانَ فِيهَا شَرٌّ فَحَسْبُ آلِ الْخَطَّابِ أَنْ يُحَاسَبَ رَجُلٌ وَاحِدٌ مِنْهُمْ عَنِ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعاً » .

* * *

وَلَمْ يَنْفَرِدِ ابْنُ الْخَطَّابِ فِي هَذَا الشُّعُورِ نَحْوَ

---

(١) لا أرب : لا مطلب ولا رغبة .
(٢) ما حمدت : ما استحسنت ولا فرحت به .
(٣) أرغب : أطلب وأشتهي .

الـحُكْمِ وَإِنَّمَا شَارَكَهُ فِيهِ كُلُّ مَنِ اسْتَشْعَرَ مَعَانِيَ الْإِسْلَامِ مِنَ الـخُلَفَاءِ ...

فَهَا هُوَ ذَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العزيزِ(١) يَقِفُ حِينَ آلَتْ إِلَيْهِ الْخِلَافَةُ خَطِيباً فِي الـمُسْلِمِينَ فَيَقُولُ :

« أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ ابْتُلِيتُ بِهَذَا الْأَمْرِ عَنْ غَيْرِ رَأْيٍ مِنِّي كَانَ فِيهِ ، وَلَا طِلْبَةٍ(٢) لَهُ ، وَلَا مَشُورَةٍ مِنَ الـمُسْلِمِينَ ، وَإِنِّي قَدْ خَلَعْتُ مَا فِي أَعْنَاقِكُمْ مِنْ بَيْعَتِي ، فَاخْتَارُوا لِأَنْفُسِكُمْ ... » ، فَصَاحَ الـمُسْلِمُونَ :

قَدِ اخْتَرْنَاكَ يَا أَمِيرَ الـمُؤْمِنِينَ ، وَرَضِينَا بِكَ .

* * *

إِنَّ هَذِهِ النَّظْرَةَ إِلَىٰ الـحُكْمِ ، تَنْبُعُ مِنَ الشُّعُورِ بِالْمَسْئُولِيَّةِ الْجَسِيمَةِ(٣) الـمُلْقَاةِ عَلَىٰ عَاتِقِ الْحَاكِمِ ...

---

(١) عُمَر بْن عَبْد العَزِيز انظره في كتاب « صور من حياة التَّابعين » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٢) طلبة : مطلب وأمل.

(٣) الجسيمة : العظيمة .

فَهُوَ يَعُدُّ نَفْسَهُ مَسْئُولاً عَنِ النَّاسِ جَمِيعاً ...

مَسْئُولاً عَنْ أَمْنِهِمْ وَعَدْلِهِمْ ، عَنْ مَعَاشِهِم[١] وَمَعَادِهِمْ[٢].

فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :

« وَاللَّهِ لَوْ هَلِكَتْ شَاةٌ فِي أَقْصَىٰ الْعِرَاقِ ، لَعَدَدْتُ نَفْسِي مَسْئُولاً عَنْهَا » ...

وَلَمْ يَقُلْ عُمَرُ هَذَا بِلِسَانِهِ فَحَسْبُ ، وَإِنَّمَا نَقَلَهُ مِنْ سَاحَةِ الأَقْوَالِ وَالْمُثُلِ إِلَىٰ وَاقِعِ التَّطْبِيقِ وَالْعَمَلِ .

فَلَقَدْ رَوَىٰ أَسْلَمُ « مَوْلَىٰ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ » أَنَّ عُمَرَ خَرَجَ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ يَتَفَقَّدُ رَعِيَّتَهُ ، وَكَانَ هُوَ فِي صُحْبَتِهِ ، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَا ضَاحِيَةً مِنْ ضَوَاحِي المَدِينَةِ ، رَأَيَا نَاراً تُوقَدُ ...

---

(١) معاشهم : دنياهم .

(٢) المعاد : من معانيه المرجع والمصير ، والآخرة والجنة ، وكأن الراعي مسئول عن دين الرعية بحيث يكون سبباً في نجاتها في معادها ، أي في الآخرة .

فَهَرْوَلَا حَتَّىٰ إِذَا دَنَوَا مِنْهَا أَبْصَرَا صِبْيَاناً يَتَضَاغَوْنَ[1]، وَقِدْراً مَنْصُوبَةً عَلَىٰ النَّارِ ، وَامْرَأَةً عَجُوزاً .

فَقَالَ عُمَرُ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الضَّوْءِ .

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : وَعَلَيْكُمُ السَّلَامُ .

فَقَالَ : مَا بَالُ هَؤُلَاءِ الصِّبْيَةِ يَتَضَاغَوْنَ ؟

قَالَتْ : الْجُوعُ .

قَالَ : وَأَيُّ شَيءٍ فِي هَذِهِ الْقِدْرِ ؟

قَالَتْ : مَاءٌ أُسْكِتُهُمْ بِهِ حَتَّىٰ يَنَامُوا ... وَاللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ عُمَرَ .

فَقَالَ : أَيْ رَحِمَكِ اللَّهُ ، وَمَا يُدْرِي عُمَرَ بِكُمْ ؟

فَقَالَتْ : يَتَوَلَّىٰ أَمْرَنَا ، ثُمَّ يَغْفُلُ عَنَّا .

قَالَ أَسْلَمُ : فَأَقْبَلَ عَلَيَّ فَقَالَ : انْطَلِقْ بِنَا ...

---

(١) يَتَضَاغَوْن : يتضورون من الجوع ويصيحون .

فَانْطَلَقْنَا حَتَّىٰ أَتَيْنَا دَارَ الدَّقِيقِ، فَأَخْرَجَ عِدْلاً مِنْ دَقِيقٍ وَكُبَّةً[1] مِنْ شَحْمٍ...

وَقَالَ: احْمِلْهُ عَلَيَّ.

قُلْتُ: أَنَا أَحْمِلُهُ عَنْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.

قَالَ: وَيْحَكَ، أَوَ تَحْمِلُ عَنِّي وِزْرِي[2] يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟

فَحَمَلْتُهُ عَلَيْهِ، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغْنَاهَا أَلْقَىٰ حِمْلَهُ، وَشَارَكَ الْمَرْأَةَ فِي طَبْخِ الطَّعَامِ، وَإِطْعَامِ الصِّغَارِ وَهِيَ تَقُولُ لَهُ:

جَزَاكَ اللَّهُ خَيْراً، كُنْتَ بِهَذَا أَوْلَىٰ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ.

فَعُمَرُ يَرَىٰ نَفْسَهُ مَسْئُولاً عَنِ الْعَجُوزِ...

---

(١) كبة من شحم: قطعة من شحم، وهو الدهن الذي يؤتدم به مع الدقيق.
(٢) وزري: ذنبي.

لَا أَمَامَ الْعَجُوزِ فَحَسْبُ ؛ وَلَكِنْ أَمَامَ اللَّهِ ...

وَالْعَجُوزُ تَجِدُ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَسْئُولٌ عَنْهَا ، وَإِلَّا فَفِيمَ وَلِيَ أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ ؟

*　*　*

وَلَمْ يَسْتَشْعِرِ الْخُلَفَاءُ الْمُسْلِمُونَ هَذِهِ الْمَسْئُولِيَّةَ تُجَاهَ الْمُسْلِمِينَ فَحَسْبُ ، وَإِنَّمَا أَحَسُّوهَا تُجَاهَ رَعَايَاهُمْ جَمِيعاً عَلَىٰ اخْتِلَافِ أَدْيَانِهِمْ ونِحَلِهِمْ[1] ...

فَلَقَدْ رَأَىٰ عُمَرُ شَيْخاً يَهُودِيًّا ضَرِيراً يَسْأَلُ عَلَىٰ بَابٍ ، فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ وَسَأَلَهُ :

مَا أَلْجَأَكَ إِلَىٰ هَذَا ؟

قَالَ : الْجِزْيَةُ وَالْحَاجَةُ وَالسِّنُّ .

فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَدِهِ وَذَهَبَ بِهِ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ فَأَعْطَاهُ مَا يَكْفِيهِ سَاعَتَهَا ، وَأَرْسَلَ إِلَىٰ خَازِنِ بَيْتِ الْمَالِ يَقُولُ :

---

(١) نحلهم : مللهم وعقائدهم .

« انْظُرْ هَذَا وَأَمْثَالَهُ فَوَاللَّهِ مَا أَنْصَفْنَا أَنْ أَكَلْنَا شَبِيبَتَهُ ، ثُمَّ نَخْذُلُهُ عِنْدَ الْهَرَمِ ، إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ » .

* * *

وَعَلَىٰ هَذَا فَالشُّعُورُ بِالْمَسْئُولِيَّةِ الْكَامِلَةِ الشَّامِلَةِ هُوَ الرَّكِيزَةُ الْأُولَىٰ فِي الْحُكْمِ الْإِسْلَامِيِّ .

أَمَّا الرَّكِيزَةُ الثَّانِيَةُ : فَهِيَ الْمَثَلُ الصَّالِحُ ، يَضْرِبُهُ الرَّاعِي لِلرَّعِيَّةِ فِي سُلُوكِهِ الْعَمَلِيِّ .

فَلَقَدْ جَاعَ النَّاسُ عَامَ الرَّمَادَةِ ، فَآلَىٰ عُمَرُ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَلَّا يَذُوقَ سَمْناً وَلَا لَحماً ، حَتَّىٰ يَشْبَعَ مِنْهُمَا النَّاسُ ، وَظَلَّ كَذَلِكَ حَتَّىٰ اسْوَدَّ جِلْدُهُ وَبَسُرَ[١] مِنْ أَكْلِ الزَّيْتِ ، وَكَانَ يَقُولُ :

« كَيْفَ يَعْنِينِي شَأْنُ الرَّعِيَّةِ إِذَا لَمْ يَمْسَسْنِي مَا يَمَسُّهُمْ » .

---

(١) بَسُرَ : تغير واختلط لونه .

فَإِذَا دَعَا الخَلِيفَةُ النَّاسَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَىٰ التَّقَشُّفِ لَقِيتْ دَعْوَتُهُ آذَاناً صَاغِيَةً ، وَإِذَا حَضَّهُمْ عَلَىٰ التَّنَازُلِ عَنْ كَمَالِيَّاتِهِمْ ، لِيَسُدَّ بِهَا حَاجَاتِ غَيْرِهِمْ وَجَدَ فِيهِمْ سَمِيعاً مُجِيباً.

* * *

أَمَّا الرَّكِيزَةُ الثَّالِثَةُ لِهَذَا الْحُكْمِ : فَهِيَ الْعَدْلُ الَّذِي يَبْعَثُ الطُّمَأْنِينَةَ فِي النُّفُوسِ ، وَيُرْسِي بَيْنَ النَّاسِ قَوَاعِدَ الْحُكْمِ الصَّالِحِ ...

فَهَا هُوَ ذَا عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تُسْرَقُ دِرْعُهُ فَيَجِدُهَا عِنْدَ رَجُلٍ نَصْرَانِيٍّ مِنْ رَعِيَّتِهِ ... فَلَا يَأْخُذُ الدِّرْعَ الْمَسْرُوقَةَ ، وَإِنَّمَا يُقْبِلُ بِالْمُوَاطِنِ النَّصْرَانِيِّ عَلَىٰ الْقَاضِي شُرَيْح(١) ...

يُخَاصِمُهُ مُخَاصَمَةَ رَجُلٍ مِنْ عَامَّةِ النَّاسِ ، فَيَحْكُمُ

---

(١) شريح القاضي : انظره في كتاب «صور من حياة التّابعين» للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

شُرَيْحٌ بِالدِّرْعِ لِلنَّصْرَانِيِّ ؛ لِأَنَّ عَلِيًّا لَا بَيِّنَةَ[1] عِنْدَهُ عَلَىٰ أَنَّ الدِّرْعَ دِرْعُهُ ...

وَيَأْخُذُهَا النَّصْرَانِيُّ وَيَمْشِي ، وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَنْظُرُ إِلَىٰ دِرْعِهِ فِي يَدِ خَصْمِهِ .

إِلَّا أَنَّ النَّصْرَانِيَّ لَمْ يَخْطُ خُطُوَاتٍ حَتَّىٰ يُدْرِكَهُ نُبْلُ الْمَوْقِفِ ...

فَيَعُودَ قَائِلاً : أَمَّا أَنَا فَأَشْهَدُ أَنَّ هَذِهِ أَحْكَامُ أَنْبِيَاءٍ ... أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يُدِينُنِي[2] إِلَىٰ قَاضِيهِ فَيَقْضِي[3] عَلَيْهِ ...

أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ...

الدِّرْعُ وَاللَّهِ دِرْعُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ عَلِيٌّ : أَمَا إِذَا أَسْلَمْتَ فَهِيَ لَكَ .

* * *

---

(١) البينة : البرهان والدليل .

(٢) يدينني : يقاضيني .

(٣) فيقضي عليه : فيحكم القاضي عليه .

أَمَّا الْمَحْكُومُونَ فَنَظَرُوا إِلَىٰ الْحَاكِمِ عَلَىٰ أَنَّهُ أَجِيرٌ لَا أَمِيرٌ ، لَهُ عَلَيْهِمُ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ مَا عَدَلَ بَيْنَهُمْ وَأَطَاعَ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فِيهِمْ ، فَإِذَا حَادَ[1] عَنْ ذَلِكَ فَلَا طَاعَةَ لَهُ عَلَيْهِمْ .

وَإِنَّكَ لَوَاجِدٌ مِصْدَاقَ ذَلِكَ فِيمَا رُوِيَ مِنْ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ غَنِمُوا أَثْوَاباً يَمَانِيَّةً ، فَخَصَّ كُلَّ رَجُلٍ مِنْهُمْ ثَوْبٌ قَصِيرٌ . . .

وَكَانَ عُمَرُ طَوِيلَ الْقَامَةِ فَلَمْ يَكْفِهِ نَصِيبُهُ ، فَنَزَلَ لَهُ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ عَنْ ثَوْبِهِ ، فَجَمَعَهُمَا مَعاً وَخَاطَهُمَا وَلَبِسَهُمَا وَخَرَجَ إِلَىٰ النَّاسِ يَخْطُبُهُمْ . . .

فَقَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا .

فَوَقَفَ سَلْمَانُ[2]، فَقَالَ : لَا سَمْعَ لَكَ وَلَا طَاعَةَ .

---

(١) حاد : انحرف ومال .
(٢) سلمان الفارسي : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

قَالَ عُمَرُ: وَلِمَ؟!

قَالَ سَلْمَانُ: مِنْ أَيْنَ لَكَ بِهَذَا الثَّوْبِ الطَّوِيلِ؟

فَقَالَ: لَا تَعْجَلْ يَا سَلْمَانُ...

وَنَادَىٰ ابْنَهُ عَبْدَ اللَّهِ قَائِلاً:

نَاشَدْتُكَ اللَّهَ مِنْ أَيْنَ لِي هَذَا؟

قَالَ: إِنَّهُ نَصِيبِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.

فَقَالَ سَلْمَانُ: الآنَ نَسْمَعُ وَنُطِيعُ.

لَمْ يَضِقْ عُمَرُ ذَرْعاً بِالنَّقْدِ، وَلَمْ يَرْمِ سَلْمَانَ بِسِهَامِ بَطْشِهِ وَغَضَبِهِ...

وَإِنَّمَا صَبَرَ عَلَيْهِ حَتَّىٰ أَدْخَلَ الطُّمَأْنِينَةَ عَلَىٰ نَفْسِهِ...

لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ حُكْماً لَا يَقُومُ بِثِقَةِ الْمَحْكُومِ بِالْحَاكِمِ، مَقْضِيٌّ عَلَيْهِ بِالْفَشَلِ وَالزَّوَالِ.

* * *

عَلَىٰ هَذَا الهَدْيِ سَارَ المُسْلِمُونَ الأُوَلُ ...

فَلَقَدْ رَأَىٰ الْحَاكِمُونَ أَنَّ الحُكْمَ مِحْنَةٌ لَا مِنْحَةٌ ...

وَمَسْئُولِيَّةٌ شَامِلَةٌ كَامِلَةٌ ...

وَسُلُوكٌ عَمَلِيٌّ، تُحَقِّقُ الأَعْمَالُ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ الأَقْوَالُ ...

وَعَدْلٌ لَا يُحَابِي[1] ...

وَحُرِّيَّةٌ لِلْمَحْكُومِينَ فِي نَقْدِ الْحَاكِمِينَ.

وَعَلَىٰ هَذِهِ الأُسُسِ شُيِّدَتْ أَكْرَمُ دَولَةٍ ...

وَأُسِّسَ أَعْدَلُ حُكْمٍ.

*   *   *

(١) عدلٌ لا يُحَابي: عدلٌ لا مجاملة فيه .

الـحُرِّيَّةُ الشَّخْصِيَّةُ

﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِـحَاتِ وتَوَاصَوْا بِالْـحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[١].

عَلَىٰ هَدْيِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، سَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ ...

وَبِمِصْبَاحِ هَذَا التَّوْجِيهِ الْإِلَهِيِّ، اسْتَنَارَ الـمُسْلِمُونَ الْأُوَلُ ...

فَأَسَّسُوا أَفْضَلَ مُجْتَمَعٍ عَرَفَتْهُ الْإِنْسَانِيَّةُ، وَأَقَامُوا أَكْمَلَ حَضَارَةٍ زَهَا[٢] بِهَا التَّارِيخُ، وَشَادُوا أَهْدَىٰ دَوْلَةٍ قَادَتِ الْـجَمَاهِيرَ.

---

(١) سورة العصر.

(٢) زها: افتخر واختال.

فَكَانُوا بِحَقٍّ، خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ.

* * *

قَرَأْتُ هَذِهِ السُّورَةَ الْخَفِيفَةَ عَلَىٰ اللِّسَانِ، الثَّقِيلَةَ فِي الْمِيزَانِ، وَتَبَيَّنْتُ مَا فِيهَا مِنْ حَضٍّ عَلَىٰ التَّنَاصُحِ، وَحَثٍّ عَلَىٰ التَّوَاصِي بِالْحَقِّ...

فَذَكَرْتُ مَعَهَا حَدِيثاً مِنْ أَحَادِيثِ الرَّسُولِ الْعَظِيمِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، حَدَّدَ فِيهِ نَظْرَةَ الْإِسْلَامِ إِلَىٰ عَلَاقَةِ الْفَرْدِ مَعَ الْجَمَاعَةِ...

وَبَيَّنَ فِيهِ رَأْيَ الْقُرْآنِ؛ فِي مَوْقِفِ الْجَمَاعَةِ مِنَ الْفَرْدِ...

وَعَالَجَ مُشْكِلَةً مِنْ أَشَدِّ مَشَاكِلِ الْمُجْتَمَعِ تَعْقِيداً، وَأَبْعَدِهَا أَثَراً فِي إِقَامَةِ دَعَائِمِهِ الثَّابِتَةِ...

أَلَا وَهِيَ مُشْكِلَةُ الْحُرِّيَّاتِ الشَّخْصِيَّةِ.

أَيْنَ تَبْدَأُ ... وَإِلَىٰ أَيْنَ تَنْتَهِي ؟

وَأَيَّانَ تُطْلَقُ ... وَمَتَىٰ تُحَدُّ ؟

* * *

وَقَدِ اعْتَمَدَ الرَّسُولُ ﷺ فِي عِلَاجِ هَذِهِ الْمَشَاكِلِ الْخَطِيرَةِ ، عَلَىٰ الْوَاقِعِ الَّذِي لَا يُدْحَضُ[1]، وَاسْتَنَدَ إِلَىٰ الْمَثَلِ الَّذِي لَا يُنْكَرُ ...

فَقَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ :

(إِنَّ قَوْماً رَكِبُوا فِي سَفِينَةٍ فَاقْتَسَمُوا ، فَصَارَ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَوْضِعٌ ، فَنَقَرَ رَجُلٌ مِنْهُمْ مَوْضِعَهُ بِفَأْسٍ .

فَقَالُوا : مَا تَصْنَعُ ؟

قَالَ : هُوَ مَكَانِي ، أَصْنَعُ فِيهِ مَا أَشَاءُ .

فَإِنْ أَخَذُوا عَلَىٰ يَدِهِ ، نَجَا وَنَجَوْا ، وَإِنْ تَرَكُوهُ هَلَكَ وَهَلَكُوا) .

---

(١) يدحض : يبطل .

فَالرَّسُولُ الأَعْظَمُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يُشَبِّهُ فِي حَدِيثِهِ هَذَا، أَرْضَنَا الَّتِي نَحْيَا عَلَيْهَا وَنَسْعَىٰ فِي مَنَاكِبِهَا، بِسَفِينَةٍ تَمْخُرُ(١) عُبَابَ الْكَوْنِ(٢)...

وَيُشَبِّهُنَا نَحْنُ مَعْشَرَ الْبَشَرِ، الَّذِينَ نَعِيشُ عَلَىٰ ظَهْرِ هَذِهِ الأَرْضِ، بِرُكَّابِ السَّفِينَةِ، اقْتَسَمْنَا ظَهْرَهَا، وَأَخَذَ كُلٌّ مِنَّا مَوْضِعَهُ عَلَيْهَا.

فَكَانَ مِنَّا الْعَامِلُ الَّذِي قُدِّرَ لَهُ أَنْ يَبْنِيَ الْحَيَاةَ بِسَاعِدَيْهِ...

وَالْمُدَرِّسُ الَّذِي يُسِّرَ لَهُ أَنْ يَصْنَعَ الْعُقُولَ بِعِلْمِهِ...

وَالطَّبِيبُ الَّذِي مُكِّنَ لَهُ أَنْ يَأْسُوَ(٣) الجِرَاحَ بِطِبِّهِ...

وَالْمُحَامِي الَّذِي هُيِّئَ لَهُ أَنْ يَنْصُرَ المَظْلُومَ وَيُحَارِبَ الظَّالِمَ.

---

(١) تمخر: تشق.
(٢) الكون: الدنيا، وكأنها بحر يشقه البشر ويعبرونه.
(٣) يأسو: يداوي.

نَعَمْ ... لَقَدْ أَخَذَ كُلٌّ مِنَّا مَوضِعَهُ عَلَىٰ ظَهْرِ هَذِهِ السَّفِينَةِ، وَسَارَتْ بِنَا، بِاسْمِ اللَّهِ، مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ...

فَقَامَ وَاحِدٌ مِنَّا نَحْنُ مَعْشَرَ الرُّكَّابِ، وَحَمَلَ فَأْسَهُ بِكِلْتَا يَدَيْهِ، وَجَعَلَ يَنْقُرُ مَكَانَهُ الَّذِي هُوَ فِيهِ، مُتَذَرِّعاً[1] بِحَقِّهِ فِي التَّمَلُّكِ، مُعْتَصِماً[2] بِحُرِّيَّتِهِ فِيمَا اخْتُصَّ بِهِ، ظَانًّا أَنَّهُ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِ مَا دَامَ يَنْقُرُ مَكَانَهُ، وَيَخْرِقُ مَا اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ مِنَ السَّفِينَةِ ...

وَاشْرَأَبَّتْ[3] إِلَيْهِ أَعْنَاقُ الرُّكَّابِ مَذْعُورَةً مُسْتَنْكِرَةً، تَسْأَلُهُ فِي قَلَقٍ وَإِشْفَاقٍ: مَاذَا تَفْعَلُ؟

فَلَمْ يَزِدْ عَلَىٰ أَنْ قَالَ:

هُوَ مَكَانِي، أَصْنَعُ فِيهِ مَا أَشَاءُ.

وَيُعَقِّبُ الرَّسُولُ الْعَظِيمُ ﷺ، عَلَىٰ هَذَا الْمَشْهَدِ الرَّهِيبِ بِقَوْلِهِ:

---

(١) متذرعاً: مبرراً.
(٢) معتصماً: ملتجئاً ومتحصناً.
(٣) واشرأبت: ارتفعت وتطاولت لترىٰ.

فَإِنْ أَخَذُوا عَلَىٰ يَدِهِ ، وَمَنَعُوهُ مِنَ ارْتِكَابِ فَعْلَتِهِ ، وَحَرَمُوهُ مِنْ حَقِّ تَصَرُّفِهِ فِيمَا مَلَكَ ، نَجَا هُوَ أَوَّلاً ، وَنَجَوْا هُمْ ثَانِياً ...

وَإِنْ تَرَكُوهُ يَسْتَغِلُّ حُرِّيَّتَهُ الشَّخْصِيَّةَ ، وَيَتَحَصَّنُ بِحَقِّهِ فِي التَّمَلُّكِ ، وَخَلُّوا[1] بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَرْقِ مَكَانِهِ مِنَ السَّفِينَةِ ، يَكُونُونَ قَدْ أَهْلَكُوهُ أَوَّلاً ، وَأَهْلَكُوا أَنْفُسَهُمْ ثَانِياً .

* * *

وَالحَدِيثُ الْكَرِيمُ عَلَىٰ صِغَرِ مَبْنَاهُ ؛ يُعَالِجُ كَمَا رَأَيْنَا أُمُوراً ثَلاَثَةً :

أَوَّلُهَا : عَلاَقَةُ الْفَرْدِ مَعَ الْجَمَاعَةِ .

وَثَانِيهَا : مَوْقِفُ الْجَمَاعَةِ مِنَ الْفَرْدِ .

وَثَالِثُهَا : مَسْأَلَةُ الْحُرِّيَاتِ الشَّخْصِيَّةِ .

---

(١) خلوا بينه : تركوه .

أَمَّا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِعَلَاقَةِ الْفَرْدِ مَعَ الْجَمَاعَةِ، فَالْإِسْلَامُ كَمَا يَتَّضِحُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ، يَرَىٰ أَنَّ الْمُجْتَمَعَ جِسْمٌ مُتَكَامِلٌ، وَأَنَّ الْفَرْدَ خَلِيَّةٌ مِنْ خَلَايَاهُ...

إِذَا صَلُحَتْ عَادَ صَلَاحُهَا عَلَىٰ الْجَسَدِ كُلِّهِ بِالْقُوَّةِ وَالنَّمَاءِ...

وَإِذَا فَسَدَتْ عَادَ فَسَادُهَا عَلَىٰ الْجَسَدِ كُلِّهِ، بِالْوَهَنِ وَالضَّعْفِ.

فَالْفَرْدُ الَّذِي يُهْمِلُ ذَاتَهُ، فَلَا يُنَمِّيهَا بِالْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ...

وَالْمُوَاطِنُ الَّذِي يُهْدِرُ حُقُوقَهُ، فَلَا يُطَالِبُ بِهَا وَلَا يَنَالُهَا كَامِلَةً...

وَالْإِنْسَانُ الَّذِي يُفَرِّطُ بِقُوَاهُ فَلَا يُسَخِّرُهَا فِيمَا خُلِقَتْ لَهُ.

هَؤُلَاءِ جَمِيعاً مُوَاطِنُونَ لَا يُؤْذُونَ أَنْفُسَهُمْ فَحَسْبُ، وَلَا يَكُونُونَ مَسْئُولِينَ عَنْ ذَوَاتِهِمْ أَمَامَ ذَوَاتِهِمْ فَقَطْ،

وَإِنَّمَا يَكُونُونَ قَدْ أَضَرُّوا بِمُجْتَمَعِهِمُ الَّذِي هُمْ جُزْءٌ مِنْهُ ، وَصَدَّعُوا بُنْيَانَ أُمَّتِهِمْ الَّتِي هُمْ أَعْمِدَةُ بُنْيَانِهَا .

*   *   *

هَذِهِ هِيَ نَظْرَةُ الْإِسْلَامِ إِلَىٰ صِلَةِ الْفَرْدِ بِالْمُجْتَمَعِ ، أَمَّا نَظْرَتُهُ إِلَىٰ مَوْقِفِ الْمُجْتَمَعِ مِنَ الْفَرْدِ ...

فَهِيَ نَظْرَةٌ تَقُومُ عَلَىٰ أَنَّ الْمُجْتَمَعَ مَسْئُولٌ عَنْ تَصَرُّفَاتِ الْفَرْدِ ، مَدْعُوٌّ إِلَىٰ نُصْحِهِ وَإِرْشَادِهِ ، مَدْفُوعٌ إِلَىٰ الْوُقُوفِ فِي وَجْهِهِ حِينَ تُسَوِّلُ لَهُ نَفْسُهُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ أَنْ يَسْعَىٰ إِلَىٰ حَتْفِهِ بِظِلْفِهِ(١)، وَأَنْ يُحَطِّمَ شِمَالَهُ بِيَمِينِهِ .

وَعَلَىٰ هَذَا فَالْمُجْتَمَعُ الْمُمَثَّلُ فِي الْحُكُومَةِ عَلَيْهِ أَنْ يَمْنَعَ الْمُقَامِرَ فِي مَالِهِ مِنَ الْمُقَامَرَةِ ...

وَالسِّكِّيرَ الْمُعَاقِرَ(٢) لِلْخَمْرَةِ مِنَ الْمُعَاقَرَةِ ...

وَالْمُبَذِّرَ الْمُبَدِّدَ مَالَهُ مِنَ التَّبْدِيدِ ...

---

(١) سعىٰ إِلَىٰ حتفه بظلفه : سعىٰ إِلَىٰ هلاكه وموته بقدمه .
(٢) معاقر الخمر : متعاطي الخمر .

وَالْعَامِلَ الَّذِي يُضْنِي جَسَدَهُ بِالسَّهَرِ مِنَ السَّهَرِ ...

وَالْمُزَارِعَ الَّذِي يُهْمِلُ أَرْضَهُ مِنَ الْإِهْمَالِ .

لِأَنَّ هَؤُلَاءِ جَمِيعاً لَيْسُوا فِي نَظَرِ الإِسْلَامِ عَوَالِمَ[1] مُسْتَقِلَّةً تَفْعَلُ مَا تَشَاءُ حِينَ تَشَاءُ ، وَتَتْرُكُ مَا تُرِيدُ حِينَ تُرِيدُ ...

وَإِنَّمَا هُمْ أَعْضَاءُ جِسْمٍ وَاحِدٍ .

فَالسِّكِّيرُ حِينَ يُقَوِّضُ[2] جِسْمَهُ بِالْخَمْرَةِ زَعْماً مِنْهُ أَنَّهُ لَا يَضُرُّ أَحَداً ...

إِنَّمَا يُقَوِّضُ لَبِنَةً مِنْ لَبِنَاتِ الْبِنَاءِ .

وَالْعَامِلُ الَّذِي يَسْهَرُ اللَّيْلَ فِي الْحَانَاتِ ، حَتَّىٰ يُضْنِيَهُ[3] السَّهَرُ اعْتِقَاداً مِنْهُ أَنَّهُ حُرٌّ فِي وَقْتِ رَاحَتِهِ ...

إِنَّمَا يُصِيبُ إِنْتَاجَ الْأُمَّةِ بِالشَّلَلِ .

---

(١) عوالم : جمع عالم ، أو مكان خاص بمن فيه .

(٢) يقوض : يهدم ويدمر . (٣) يضنيه : يتعبه ويؤلمه .

وَالْمُزَارِعُ الَّذِي يُهْمِلُ جَانِباً مِنْ أَرْضِهِ ، ظَنًّا مِنْهُ أَنَّهُ حُرٌّ فِيمَا يَمْلِكُ ...

إِنَّمَا يَأْتِي عَلَىٰ مَحْصُولِ الْأُمَّةِ بِالنَّقْصِ .

مَثَلُهُمْ جَمِيعاً كَمَثَلِ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَنْقُرَ مَوْضِعَهُ عَلَىٰ ظَهْرِ السَّفِينَةِ .

فَإِذَا ضَرَبَ الْمُجْتَمَعُ عَلَىٰ أَيْدِي هَؤُلَاءِ بِحَزْمٍ وَشِدَّةٍ يَكُونُ قَدْ أَسْدَىٰ[1] الْخَيْرَ إِلَيْهِمْ ، وَصَانَ أَمْوَالَهُمْ مِنَ الضَّيَاعِ ، وَحَفِظَ أَجْسَامَهُمْ مِنَ الْفَسَادِ ، وَحَمَىٰ أَمْوَالَهُمْ مِنَ التَّبْدِيدِ .

أَمَّا إِذَا غَفَلَ الْمُجْتَمَعُ عَنْهُمْ أَوْ تَغَافَلَ فَسَدَرُوا[2] فِي غَيِّهِمْ وَعَمَهُوا[3] فِي ضَلَالِهِمْ ، فَإِنَّمَا يَكُونُ قَدْ قَوَّضَ صُرُوحَهُ بِسَاعِدَيْهِ .

* * *

(١) أسدىٰ : أعطىٰ وأهدىٰ .
(٢) سدروا : تاهوا ولم يتبينوا الحق .
(٣) عمهوا : تحيروا فلم يدروا أين يذهبون .

وَأَمَّا الْأَمْرُ الثَّالِثُ الَّذِي عَالَجَهُ هَذَا الْحَدِيثُ الْكَرِيمُ : فَهُوَ مَسْأَلَةُ الْحُرِّيَاتِ الشَّخْصِيَّةِ ، حَيْثُ رَأَىٰ أَنَّ دَائِرَةَ حُرِّيَّةِ الْفَرْدِ تَتَّسِعُ فِي نَظَرِ الْإِسْلَامِ اتِّسَاعاً لَيْسَ لِمَدَاهُ حَدٌّ ...

مَا دَامَ لَا يُؤْذِي بِهَذِهِ الْحُرِّيَّةِ نَفْسَهُ وَمُجْتَمَعَهُ ، أَمَّا إِذَا اسْتَغَلَّ هَذِهِ الْحُرِّيَّةَ لِلْإِضْرَارِ بِنَفْسِهِ أَوْ إِيذَاءِ مُجْتَمَعِهِ الْعَظِيمِ ...

عِنْدَ ذَلِكَ يَقِفُ الْإِسْلَامُ فِي وَجْهِهِ .

وَمِنْ هُنَا قَالَ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ ﷺ :

(فَإِنْ أَخَذُوا[١] عَلَىٰ يَدِهِ نَجَا وَنَجَوْا ، وَإِنْ تَرَكُوهُ هَلَكَ وَهَلَكُوا) .

* * *

فَكَمْ يُوجَدُ فِي مُجْتَمَعِنَا نَحْنُ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَنْقُرُ مَوْضِعَهُ مِنَ السَّفِينَةِ بِفَأْسِهِ .

---

(١) أخذوا عَلَىٰ يده : منعوه مما يفعل .

وَالـمُجْتَمَعُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ ، ثُمَّ يَلْوِي[١] عُنُقَهُ عَنْهُ كَأَنَّ أَمْرَهُ لَا يَعْنِيهِ ، وَكَأَنَّ شَأْنَهُ لَا يَتَّصِلُ بِهِ .

نَعَمْ ... كَمْ يُوجَدُ فِي مُجْتَمَعِنَا مَنْ يَهْدِمُ جِسْمَهُ بِالْخَمْرَةِ ، وَيُبَدِّدُ مَالَهُ فِي الْمَيْسِرِ ، وَيُضْنِي جَسَدَهُ بِالسَّهَرِ ، وَيُهْدِرُ وَقْتَهُ وَكَرَامَتَهُ فِي الْمَوَاخِيرِ ...

ثُمَّ لَا يَجِدُ فِي هَذَا الـمُجْتَمَعِ حَامِياً يَحْمِيهِ مِنْ نَفْسِهِ ، وَوَاقِياً يَقِيهِ شُرُورَ آثَامِهِ ، وَآمِراً يَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُ عَنِ الـمُنْكَرِ ، وَرَائِداً يُرْشِدُهُ إِلَىٰ الصِّرَاطِ ...

* * *

لَقَدْ كُنَّا خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ يَوْمَ كُنَّا نَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَنَنْهَىٰ عَنِ الـمُنْكَرِ ...

ثُمَّ صِرْنَا فِي مُؤَخِّرَةِ الرَّكْبِ حِينَ نَظَرْنَا إِلَىٰ الـمُوبِقَاتِ[٢] يَرْتَكِبُهَا الـمَرْءُ عَلَىٰ أَنَّهَا حُرِّيَّةٌ شَخْصِيَّةٌ .

---

(١) يلوي عنقه : الالتفات بكبرياء كناية عن عدم الاهتمام .
(٢) الموبقات : المهلكات .

وَلَقَدْ بَنَيْنَا الْمُجْتَمَعَ الْفَاضِلَ يَوْمَ كُنَّا نَتَوَاصَىٰ بِالْحَقِّ ، وَنَتَوَاصَىٰ بِالصَّبْرِ ...

ثُمَّ صِرْنَا أُمَّةً تَنْهَشُهَا(١) الذِّئَابُ الْجَائِعَةُ يَوْمَ عَدَدْنَا التَّوَاصِيَ بِالْحَقِّ ضَرْباً مِنَ الْفُضُولِ ، وَلَوْناً مِنْ أَلْوَانِ تَدَخُّلِ الْمَرْءِ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ .

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يُقْسِمُ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ فَيَقُولُ :

﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ .

صَدَقَ اللَّهُ العَظِيمُ

* * *

---

(١) تنهشها : تتناولها بأنيابها .

رِعَايَةُ حَقِّ الـجِوَارِ

قَالَ تَعَالَىٰ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ:

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾[1].

عَرَضَتْ[2] هَذِهِ الْآيَاتُ الْمُحْكَمَاتُ الْبَيِّنَاتُ لِجَوَانِبَ مِنْ حَيَاةِ الْمُجْتَمَعِ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يُرْسِيَ الْإِسْلَامُ عَلَىٰ الْخَيْرِ قَوَاعِدَهُ ...

---

(١) سورة النساء: آية ٣٦.

(٢) عرضت: شرحت وبينت.

وَأَنْ يُقِيمَ عَلَىٰ الْحُبِّ أُسَسَهُ وَدَعَائِمَهُ ...

وَأَنْ يَشِيدَ[1] عَلَىٰ الْجَمَالِ بُنْيَانَهُ ، وَيَرْفَعَ عَلَىٰ السَّلَامِ أَرْكَانَهُ .

وقَدْ تَنَاوَلَتْ فِيمَا تَنَاوَلَتْهُ عَلَاقَةَ الْجَارِ بِجَارِهِ ، فَقَرَنَتْهَا[2] بِالدَّعْوَةِ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ ...

وَجَمَعَتْهَا إِلَىٰ بِرِّ الْوَالِدَيْنِ وَالْإِحْسَانِ إِلَىٰ ذَوِي الْقُرْبَىٰ ...

ثُمَّ جَاءَتِ السُّنَّةُ الْمُطَهَّرَةُ ، فَأَوْلَتْ[3] هَذَا الْمَوْضُوعَ مِنَ الْعِنَايَةِ مَا جَعَلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو يَقُولُ :

إِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُوصِي بِالْجَارِ حَتَّىٰ خَشِينَا أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ ...

* * *

---

(١) يشيد : يبني .

(٢) قرنتها : جمعتها إليها .

(٣) أولت : أعطت ما يستحقه .

وَالْإِسْلَامُ حِينَ يُولِي مَوْضُوعَ الْجِوَارِ هَذِهِ الْعِنَايَةَ ...

إِنَّمَا يَمُدُّ يَدَهُ الْحَكِيمَةَ الرَّحِيمَةَ إِلَىٰ قَضِيَّةٍ مِنْ أَعْظَمِ قَضَايَانَا الِاجْتِمَاعِيَّةِ خَطراً ...

وَأَبْعَدِهَا فِي حَيَاتِنَا أَثَراً، وَأَشَدِّهَا حَسَاسِيَةً وَعُمْقاً.

فَمَنْ مِنَّا لَمْ يَضَعِ الْجَارَ نُصْبَ عَيْنَيْهِ، وَهُوَ يُؤْثِرُ شَارِعاً عَنْ شَارِعٍ فِي الْمَدِينَةِ ...

وَيُفَضِّلُ بَيْتاً عَلَىٰ بَيْتٍ فِي الشَّارِعِ ...

وَيُمَيِّزُ حُجْرَةً مِنْ حُجْرَةٍ فِي الْفُنْدُقِ ...

وَيَطْلُبُ مَكَاناً دُونَ آخَرَ فِي الْقِطَارِ أَوِ الْبَاخِرَةِ أَوِ الطَّائِرَةِ ؟.

ثُمَّ أَلَيْسَ فِينَا مَنْ أُتِيحَتْ لَهُ فُرْصَةُ امْتِلَاكِ عَقَارٍ رَأَىٰ فِيهِ مَا يُحَقِّقُ مَطَالِبَهُ، وَيُوَفِّرُ رَغَائِبَهُ، ثُمَّ ارْتَدَّ كَارِهاً لَهُ رَاغِباً عَنْهُ، مُفَوِّتاً عَلَىٰ نَفْسِهِ الْفُرْصَةَ ...

حِينَ عَرَفَ مِنْ أَمْرِ جِيرَانِهِ مَا لَا يَبْعَثُ الرِّضَا فِي نَفْسِهِ، وَلَا يَحْمِلُ الطُّمَأْنِينَةَ إِلَىٰ فُؤَادِهِ؟

بَلْ هَلْ يَخْلُو مَجْلِسٌ مِنْ مَجَالِسِنَا مِنَ الْحَدِيثِ عَنِ الْجِوَارِ وَالْجِيرَانِ، إِطْرَاءً أَوْ ذَمًّا، مَدْحاً أَوْ قَدْحاً؟

* * *

فَكَمْ مِنْ جَارٍ جَمَعَتِ الْأَقْدَارُ بَيْتَكَ إِلَىٰ بَيْتِهِ، وَوَحَّدَتِ الْمُصَادَفَةُ طَرِيقَكَ مَعَ طَرِيقِهِ...

فَأَوْلَاكَ مِنْ رَحَابَةِ صَدْرِهِ مَا حَبَّبَ إِلَيْكَ الْمَنْزِلَ، وَبَذَلَ لَكَ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهِ مَا يَسَّرَ لَكَ الْعَيْشَ، وَحَبَاكَ مِنْ عَطْفِهِ وَحُبِّهِ مَا جَعَلَكَ تَفِيءُ إِلَىٰ ظِلَالِ وِدَادِهِ كُلَّمَا لَفَحَكَ هَجِيرُ الْحَيَاةِ.

وَكَمْ مِنْ جَارٍ سَاقَتْكَ الْأَقْدَارُ إِلَىٰ جِوَارِهِ فَنَغَّصَ[1] بِسُوءِ أَخْلَاقِهِ عَيْشَكَ، وَكَدَّرَ[2] بِشَرِّ أَعْمَالِهِ صَفْوَكَ،

---

(١) نغص: غم وكدر.
(٢) كدَّر: مزجه بما يعيبه ويذهب صفوه ونقاءه.

وَأَحَالَ حَيَاتَكَ إِلَىٰ جَحِيمٍ لَا يُطَاقُ، وَسَعِيرٍ[1] لَا يُحْتَمَلُ.

* * *

مِنْ هُنَا حَرَصَ الْإِسْلَامُ عَلَىٰ مُعَالَجَةِ هَذَا الْمَوْضُوعِ أَوْفَىٰ عِلَاجٍ، فَقَالَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ:

(وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ... وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ... وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ).

قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ...

مَنْ هَذَا؟

قَالَ: (مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ).

قَالُوا: وَمَا بَوَائِقُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قَالَ: (شَرُّهُ).

* * *

(١) سعير: اسم من أسماء النّار في الآخرة.

وَلَيْسَ الشَّرُّ الَّذِي عَنَاهُ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ فِي حَدِيثِهِ هَذَا خَاصًّا بِالِاعْتِدَاءِ عَلَىٰ الْجَارِ بِالْيَدِ أَوِ اللِّسَانِ ...

وَإِنَّمَا هُوَ يَمْتَدُّ إِلَىٰ أَبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ ، مِمَّا يُؤْذِي النُّفُوسَ الْمُرْهَفَةَ الْحَسَّاسَةَ ...

وَيُكَدِّرُ الْعَيْشَ الرَّافِهَ(١) الْوَادِعَ ، وَيُسِيءُ إِلَىٰ الْحَيَاةِ الْآمِنَةِ الْمُطْمَئِنَّةِ .

أَلَيْسَ مِنَ الشَّرِ أَنْ يَنْبَعِثَ مِنْ بَيْتِكَ الصَّخَبُ(٢)؟ ...

فَيُقْلِقَ فِي الْبَيْتِ الْمُجَاوِرِ النُّفُوسَ الْمُتْعَبَةَ الْمَكْدُودَةَ ... وَيُؤَرِّقَ الْعُيُونَ النَّاصِبَةَ(٣) الْمَجْهُودَةَ ... وَيُقِضَّ(٤) مَضَاجِعَ الْأَطْفَالِ الرُّضَّعِ ... وَيُضْنِيَ

---

(١) الرّافه : من الرفاهية وهي الراحة والطمأنينة .
(٢) الصخب : الضجة العالية .
(٣) الناصبة : المتعبة .
(٤) قض المضجع : خشن وكأن فيه القضض وهو صغار الحصىٰ وما تفتت منها .

الْمَرْضَىٰ ، وَيُثِيرَ آلَامَ ذَوِي الْآلَامِ .

أَلَيْسَ مِنَ الشَّرِّ الَّذِي عَنَاهُ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ أَنْ تُطْلِقَ لِمِذْيَاعِكَ عِنَانَهُ ، وَأَنْ تُدِيرَ إِلَىٰ النِّهَايَاتِ مَفَاتِيحَهُ ؟ ...

لِيَنْدَفِعَ صَوْتُهُ هَدَّاراً[1] يُمَزِّقُ جُدْرَانَ جِيرَانِكَ ، وَيَسْتَقِرُّ فِي أُذُنَي وَلَدٍ مِنْ أَوْلَادِهِمْ يُعِدُّ نَفْسَهُ لِامْتِحَانٍ عَقَدَ عَلَيْهِ آمَالَهُ ، وَعَلَّقَ عَلَىٰ نَتَائِجِهِ مَآلَ[2] أُسْرَتِهِ وَمَآلَهُ ...

فَإِذَا بِمِذْيَاعِكَ يُحَطِّمُ الْأَعْصَابَ الْمُرْهَقَةَ ...
وَيُفْسِدُ الْخَلْوَةَ الْغَالِيَةَ ... وَيُضِيعُ الْوَقْتَ الثَّمِينَ ...
وَيَدْفَعُ اللِّسَانَ الْحَبِيسَ إِلَىٰ ذَمِّكَ وَالشَّكْوَىٰ مِنْكَ .

* * *

---

(١) هداراً : عالياً جداً .
(٢) المآل : المكان الذي يرجعُ إليه بعد السفر أو نحوه ، يعني مكان الاستقرار والثبات .

أَلَيْسَ مِنَ الشَّرِّ أَيْضاً أَنْ تَمْتَدَّ عَيْنُكَ إِلَىٰ بَيْتِ جارِكَ لِتَجُولَ فِيمَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكَ ؟ ...

وَأَنْ تُرْهِفَ(١) سَمْعَكَ لِيَبْلُغَ مِنْ شَأْنِهِ مَا لَا تُبِيحُهُ الْمُرُوءَةُ لَكَ ؟ ...

وَأَنْ تَغْدُوَ أَنْتَ وَزَوْجُكَ وَأَوْلَادُكَ جَوَاسِيسَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ أَهْلِهِ ، تَبْعَثُونَ وَرَاءَهُمِ الْعُيُونَ وَالْأَسْمَاعَ مِنْ خِلَالِ النَّوَافِذِ وَالْأَبْوَابِ وَالشُّرُفَاتِ اسْتِقْصَاءً لِأَسْرَارِهِم ، وَتَتَبُّعاً لِأَخْبَارِهِم ... فَيَفْتَضِحَ(٢) مَا يَحْسَبُونَهُ مَسْتُوراً مِنْ أَمْرِهِمْ ... وَيَنْكَشِفَ مَا يَظُنُّونَهُ مَحجُوباً مِنْ حَالِهِم ...

عِنْدَ ذٰلِكَ تَمْتَدُّ الْأَيْدِي إِلَىٰ السَّمَاءِ لِتَقُولَ :

« اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ جَارِ سُوءٍ يَرَانَا وَعَيْنُهُ تَرْعَانَا ...

إِنْ رَأَىٰ حَسَنَةً كَتَمَهَا ، وَإِنْ رَأَىٰ سَيِّئَةً نَشَرَهَا » .

* * *

(١) تُرهف : تصغي جيداً.

(٢) يفتضح : ينكشف ويظهر للعيان .

ثُمَّ أَلَيْسَ مِنَ الشَّرِّ أَنْ تَتَّقِدَ[1] نَارُ الْحَسَدِ فِي نَفْسِ جَارَةٍ عَلَىٰ جَارَاتِهَا ، فَتَعْمَلَ عَلَىٰ إِطْفَاءِ هَذِهِ النَّارِ بِإِذَاعَةِ الشَّائِعَاتِ عَنْهَا ، وَنَشْرِ الْأَقَاوِيلِ عَنْ تَصَرُّفَاتِهَا ، وَالتَّسَلِّي بِمَا يُشَوِّهُ سُمْعَتَهَا وَيَهْدِمُ حَيَاتَهَا ؟ ...

مَا أَحْرَىٰ[2] هَذِهِ أَنْ تَذْكُرَ مَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ مِنْ أَنَّ الصَّحَابَةَ قَالُوا :

يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فُلَانَةُ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ وَتُؤْذِي جِيرَانَهَا .

قَالَ : (هِيَ فِي النَّارِ) .

* * *

هَذِهِ بَعْضُ أَلْوَانِ الْإِيذَاءِ الَّتِي عَنَاهَا الرَّسُولُ الرَّحِيمُ ﷺ حِينَ قَالَ :

(مَنْ آذَىٰ جَارَهُ فَقَدْ آذَانِي ، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَىٰ اللَّهَ) .

---

(١) تتقد : تشتعل .
(٢) ما أحرىٰ : ما أجدر وأحق .

وَالرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ الَّذِي أَوْصَىٰ بِالْجَارِ مَا أَوْصَىٰ ، ذَكَرَ حُقُوقَ الْجِوَارِ حِينَ سَأَلَ كُلَّ مُسْلِمٍ قَائِلاً :

(أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْجَارِ ؟) ...

ثُمَّ أَجَابَ عَلَىٰ ذَلِكَ فَقَالَ :

(إِذَا اسْتَعَانَكَ أَعَنْتَهُ ، وَإِذَا اسْتَقْرَضَكَ أَقْرَضْتَهُ ، وَإِذَا افْتَقَرَ عُدْتَ عَلَيْهِ ، وَإِذَا مَرِضَ عُدْتَهُ ، وَإِذَا أَصَابَهُ خَيْرٌ هَنَّأْتَهُ ، وَإِذَا أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ عَزَّيْتَهُ ، وَإِذَا مَاتَ اتَّبَعْتَ جِنَازَتَهُ ...

وَلَا تَسْتَطِيلُ عَلَيْهِ بِالْبُنْيَانِ فَتَحْجُبَ عَنْهُ الرِّيحَ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، وَلَا تُؤْذِهِ بِقُتَارِ[1] رِيحِ قِدْرِكَ إِلَّا أَنْ تَغْرِفَ لَهُ مِنْهَا ...

وَإِنِ اشْتَرَيْتَ فَاكِهَةً فَأَهْدِ لَهُ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَأَدْخِلْهَا سِرًّا ، وَلَا يَخْرُجْ بِهَا وَلَدُكَ لِيَغِيظَ بِهَا وَلَدَهُ) .

---

(١) القُتار : رائحة الشِّواء .

وَلَا عَجَبَ فِي أَنْ يُوجِبَ الرَّسُولُ ﷺ لِلْجَارِ عَلَىٰ جَارِهِ مِثْلَ هَذِهِ الْحُقُوقِ ، مَا دَامَ الْإِسْلَامُ يَهْدِفُ إِلَىٰ إِقَامَةِ مُجْتَمَعٍ يَسُودُهُ الحُبُّ ، وَيُظَلِّلُهُ الوُدُّ ويَكْنُفُهُ السَّلَامُ .

فَحِينَ يَكُفُّ كُلُّ جَارٍ عَنْ أَذَىٰ جَارِهِ ، وَيَعْرِفُ لَهُ حَقَّهُ عَلَيْهِ ، فَيُعِينُهُ عَلَىٰ شِدَّتِهِ ، وَيُقِيلُهُ مِنْ عَثْرَتِهِ ، وَيَحْفَظُهُ فِي غَيْبَتِهِ ...

وَيُشَارِكُهُ فِي أَفْرَاحِهِ لِيُضَاعِفَ بِالْمُشَارَكَةِ مَسَرَّاتِهِ ، وَيُسَانِدُهُ فِي أَتْرَاحِهِ(١)، لِيُخَفِّفَ بِالْمُسَانَدَةِ أَحْزَانَهُ ...

عِنْدَ ذَلِكَ تَرْبِطُ بَيْنَ الْبُيُوتِ الْمُتَجَاوِرَةِ المَحَبَّةُ الْوَاشِجَةِ(٢)...

وَتُؤَاخِي بَيْنَ الْقُلُوبِ الْمُتَبَاعِدَةِ بِالْمَوَدَّةِ الصَّادِقَةِ ...

---

(١) أتراحه : أحزانه ومصائبه .
(٢) الواشجة : الواصلة .

وَيَنْزِلُ الْجارُ مِنْ جارِهِ مَنْزِلَةَ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ .

* * *

وَبَعْدُ ، فَلَعَلَّ خيْرَ مَا يُخْتَمُ بِهِ هَذَا الْحَدِيثُ هُوَ مَا رُوِي مِنْ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ ، رَأَىٰ وَلَدَهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ يُخَاصِمُ جَاراً لَهُ فَقَالَ :

« لَا تُخَاصِمْ جَارَكَ يَا بُنَيَّ ، فَإِنَّ هَذَا يَبْقَىٰ وَالنَّاسُ يَذْهَبُونَ » .

* * *

قَوْلُ الزُّورِ

رَوَىٰ لِي أَحَدُ الصِّحَابِ هَذِهِ الحَادِثَةَ قَالَ :

كُنَّا فِي رَمَضَانَ المُنْصَرِمِ نَخْتَلِفُ أَنَا وَجَمَاعَةٌ مِنْ رِفَاقِي إِلَىٰ مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِنَا عَصرَ كُلِّ يَوْمٍ ، وَنَمْكُثُ فِيهِ إِلَىٰ أَنْ يُقَارِبَ الغُرُوبَ .

وَفِي ذَاتِ أَصِيلٍ[1] تَوَافَدَ الصِّحَابُ وَاحِداً بَعْدَ آخَرَ إِلَىٰ الْمَجْلِسِ ، وَمَا إِنْ أَخَذُوا أَمَاكِنَهُمْ حَتَّىٰ دَارَ بَيْنَنَا حَدِيثٌ ذُو شُجُونٍ ...

تَحَدَّثْنَا عَنِ الْكُتُبِ وَمَا جَدَّ مِنْهَا ، وَالْمَجَلَّاتِ وَمَا نُشِرَ فِيهَا ، وَالصُّحُفِ وَمَارَوَتْهُ مِنْ طَرَائِفَ وَأَخْبَارٍ .

---

(١) وقت الأصيل : ما بين العصر والمغرب .

وَكَانَ الْحَدِيثُ هَادِئًا فَاتِراً ؛ فَقَدْ أَخَذَ الصَّوْمُ مِنَّا مَأْخَذَهُ .

وَظَلَّ الْأَمْرُ كَذَٰلِكَ حَتَّىٰ جَاءَ ذِكْرُ فُلَانٍ مِنَ النَّاسِ ـ وَهُوَ رَجُلٌ تَرْبِطُنَا بِهِ بَعْضُ الْوَشَائِجِ(١) ـ فَاعْتَدَلَ أَحَدُنَا فِي جِلْسَتِهِ ، وَظَهَرَتْ عَلَىٰ قَسَمَاتِ وَجْهِهِ عَلَامَاتُ الْجِدِّ ، وَبَدَا وَكَأَنَّ الصَّوْمَ لَمْ يَتْرُكْ فِيهِ أَثَرَهُ ، وَاسْتَلَّ(٢) لِسَانَهُ كَمَا يَسْتَلُّ امْرُؤٌ مَوْتُورٌ(٣) خِنْجَراً مَسْمُوماً ، وَتَنَاوَلَ بِهِ فُلَاناً هَذَا ...

فَذَكَرَ جَهْلَهُ الْمُطْبِقَ وَكَيْفَ يَزْعُمُ أَنَّهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَظِلَّهُ الثَّقِيلَ وَكَيْفَ يَتَظَاهَرُ بِأَنَّهُ مِنَ الظُّرَفَاءِ .

وَانْطَلَقَ الْحَدِيثُ هَذِهِ الْمَرَّةَ لَا يَتَهَادَىٰ فِي رِقَّةٍ وَرِفْقٍ كَمَا كَانَ ، وَإِنَّمَا يَتَدَفَّقُ فِي شِدَّةٍ وَعُنْفٍ .

وَانْبَرَىٰ آخَرُ لِيُشَارِكَ فِي أَكْلِ لَحْمِ هَذَا الْإِنْسَانِ ،

---

(١) الوشائج : الصلات .
(٢) استل لسانه : سحبه ، تشبيهاً للسان بالسيف يسل من غمده .
(٣) الموتور : الذي له ثأر عند الآخرين .

وَمَا لَبِثَ أَنِ انْضَمَّ إِلَيْهِمَا ثَالِثٌ وَرَابِعٌ حَتَّىٰ اشْتَرَكْنَا جَمِيعاً فِي الْحَدِيثِ ...

مِنَّا مَنْ شَارَكَ بِفَصَاحَتِهِ وَبَيَانِهِ، وَمِنَّا مَنْ شَارَكَ بِقَسَمَاتِ وَجْهِهِ الَّتِي تُشْعِرُ بِالتَّأْيِيدِ، وَحَرَكَاتِ رَأْسِهِ الَّتِي تُشِيرُ إِلَىٰ التَّصْدِيقِ وَالتَّأْكِيدِ.

وَقَدْ بَالَغَ أَحَدُ الْجُلُوسِ فِي ثَلْبِهِ[1] وَذَمِّهِ، حَتَّىٰ إِنَّهُ قَالَ:

إِنَّ مُجْتَمَعاً يَحْتَرِمُ ذَاتَهُ لَا يُفْسِحُ مَكَاناً فِي رِحَابِهِ لِهَذَا وَأَمْثَالِهِ مِنَ النَّاسِ.

* * *

وَكَانَ فُلَانٌ هَذَا مِنَ الرِّجَالِ الْمَرْمُوقِينَ[2] الَّذِينَ بَلَغُوا مَنْصِباً عَالِياً مِنْ مَنَاصِبِ الدَّوْلَةِ، وَاحْتَلُّوا مَكَاناً حَسَناً فِي دُنْيَا الْأَدَبِ وَالْقَلَمِ، وَقَدْ وَصَلَ إِلَىٰ مَا وَصَلَ

---

(١) ثلبه: اغتابه وتكلم عنه بالسوء.

(٢) رمق الشيء: أطال إليه النظر، والرجال المرموقين الذين يشتهرون بين الناس، فينظر إليهم احتراماً وتوقيراً.

إِلَيْهِ بِجِدٍّ دَائِبٍ وَسَعْيٍ مُتَوَاصِلٍ وَاغْتِنَامٍ لِلْفُرَصِ.

وَفُلَانٌ هَذَا وَأَمْثَالُهُ يَكْثُرُ حَاسِدُوهُمْ وَيَقِلُّ مُنْصِفُوهُمْ، يَسْمَعُ النَّاسُ أَسْمَاءَهُمْ تَتَرَدَّدُ فِي الْمَحَافِلِ فَيَقُولُونَ: «مَتَىٰ كَانُوا؟ ...»

وَيَرَونَهُمْ يَتَصَدَّرُونَ الْمَجَالِسَ،

فَيُتَمْتِمُونَ[1]: «مِنْ أَيْنَ جَاؤُوا؟ ...»

* * *

وَمَا هِيَ إِلَّا دَقَائِقُ مَعْدُودَاتٌ حَتَّىٰ أَقْبَلَ عَلَىٰ مَجْلِسِنَا فُلَانٌ هَذَا بِشَحْمِهِ وَلَحْمِهِ، فَوَقَفْنَا جَمِيعاً عَلَىٰ أَقْدَامِنَا نُرَحِّبُ بِمَقْدِمِهِ ...

وَانْفَرَجَتْ شِفَاهُنَا عَنِ ابْتِسَامَاتٍ عَرِيضَةٍ اسْتِبْشَاراً بِرُؤْيَتِهِ، وَامْتَدَّتْ أَيْدِينَا لِتُصَافِحَهُ ...

وَانْطَلَقَتْ أَلْسِنَتُنَا لِلِاسْتِفْسَارِ عَنْ صِحَّتِهِ، وَالِاطْمِئْنَانِ عَلَىٰ أَحْوَالِهِ ...

---

(١) تمتم تمتمة في الكلام: عجل فيه فلم يفهم سامعه منه شيئًا.

ثُمَّ أَفْسَحْنَا لَهُ مَكَاناً رَحِيباً بَيْنَنَا يَتَصَدَّرُ الْمَجْلِسَ. وَعَرَتْنِي[1] هَدْأَةُ مَنْ يَشْعُرُ بِوَخْزِ الْإِثْمِ[2]، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي: أَنَخُونُ رَمَضَانَ فَنَصُومُ عَنِ الطَّعَامِ وَنَأْكُلُ مِنْ لَحْمِ أَخِينَا مَيِّتاً؟ ...

وَنُحْجِمُ عَنِ الشُّرْبِ ثُمَّ نَلِغُ فِي دِمَائِهِ غَائِباً؟.

* * *

وَعَادَ الْحَدِيثُ هَادِئًا كَمَا كَانَ فِي أَوَّلِ الْجَلْسَةِ، وَبَقِيَ كَذَلِكَ إِلَىٰ أَنْ سَأَلَ هَذَا الرَّجُلُ الصَّحْبَ قَائِلاً:

« هَلِ اطَّلَعْتُمْ عَلَىٰ مَقَالِ رَئِيسِ التَّحْرِيرِ فِي مَجَلَّةِ كَذَا؟ »

فَقَالَ أَحَدُنَا: قَرَأْتُهُ فَوَاللَّهِ مَا خَرَجْتُ مِنْهُ بِطَائِلٍ[3]؛ عُنْوَانٌ ضَخْمٌ، وَكَلَامٌ مُنَمَّقٌ[4]، وَإِنْسَانٌ يَدُورُ فِي حَلْقَةٍ مُفْرَغَةٍ لَا يَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ يَبْدَأُ وَلَا أَيْنَ يَنْتَهِي.

---

(١) عرتني: عرضت لي وأصابتني.
(٢) وخز الإثم: الندم، والألم بسبب فعل الذنوب.
(٣) الطائل: الفائدة والمنفعة. (٤) الكلام المنمق: المزين المزوق.

ثُمَّ أَرْدَفَ فُلَانٌ هَذَا قَائِلاً: وَكَيْفَ وَجَدْتُمْ مَقَالِي أَنَا؟.

فَقَالَ أَحَدُ الْجَالِسِينَ: «وَاللَّهِ إِنَّهُ لَغَنِيٌّ»...

وَكَأَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ كَانَتْ مِفْتَاحاً فَتَحَ اللَّهُ بِهِ صَنَادِيقَ مَحَاسِنِ هَذَا الْإِنْسَانِ...

فَإِذَا بِالْأَلْسُنِ تُحَلُّ عُقَدُهَا عَنْ تَقْرِيظٍ لِمَا كَتَبَ، وَثَنَاءٍ عَلَىٰ مَا دَبَّجَ[1]، وَتَقْدِيرٍ لِمَا فَعَلَ.

* * *

ثُمَّ أَرْدَفَ مُحَدِّثِي قَائِلاً:

وَقَارَبَتِ الشَّمْسُ أَنْ تَغْرُبَ، وَانْفَضَّ السَّامِرُ، وَعُدْنَا أَدْرَاجَنَا إِلَىٰ بُيُوتِنَا...

وَفِيمَا أَنَا فِي طَرِيقِي إِلَىٰ مَنْزِلِي كُنْتُ أُحَدِّثُ نَفْسِي قَائِلاً: أَيُّ صَوْمٍ هَذَا الَّذِي نَصُومُ فِيهِ عَنْ مَطَالِبِ الْجَسَدِ ثُمَّ نُرْخِي مَعَ ذَلِكَ الْعَنَانَ لِلنَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ،

---

(١) ما دبج: ما كتب من كلام حسن ومنمق.

فَتَجْتَرِعَ[1] مَا تَشَاءُ مِنَ المَآثِمِ ، وَتَفْعَلَ مَا يَعِنُّ[2] لَهَا مِنَ المُحَرَّمَاتِ ، ثُمَّ نَزْعُمُ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنَّنَا صَائِمُونَ !!

* * *

لَوْ كُنَّا صَائِمِينَ حَقًّا لَنَزَّهْنَا أَنْفُسَنَا عَنِ المُوبِقَاتِ ، وَأَكْرَمْنَا صِيَامَنَا عَنِ المُحَرَّمَاتِ ، وَطَهَّرْنَا أَلْسِنَتَنَا مِنْ دِمَاءِ النَّاسِ ، وَمَلَأْنَا مَجَالِسَنَا بِالطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ، وَشَغَلْنَاهَا بِالنَّافِعِ مِنَ الْحَدِيثِ .

لَوْ كُنَّا صَائِمِينَ حَقًّا لَاغْتَنَمْنَا فُرْصَةَ هَذَا الشَّهْرِ الْمُبَارَكِ ...

فَرَجَعْنَا إِلَىٰ أَنْفُسِنَا لِنُصْلِحَ مَا فِيهَا مِنْ عُيُوبٍ ، وَالْتَفَتْنَا إِلَىٰ تَصَرُّفَاتِنَا لِنُقَوِّمَ مَا يَشُوبُهَا مِنِ اعْوِجَاجٍ ، وَتَوَجَّهْنَا إِلَىٰ أَهْلِينَا وَأَوْلَادِنَا لِنَسْتَكْمِلَ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ نَقْصٍ ...

* * *

---

(١) تجترع : اجترع الماء اجتراعاً ابتلعه مرة واحدة ، والإنسان الذي يعتاد فعل الإثم يسهل عليه وكأنه يتجرعه كما يتجرع الماء .

(٢) يعن لها : يظهر لها ويبدو .

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ صَاحِبِي قَائِلاً :

« وَمَا قَوْلُكَ أَنْتَ فِيمَا سَمِعْتَ ؟ »

فَقُلْتُ لَهُ : طُوبَىٰ لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ ...

وَهَنِيئًا لِمَنْ صَامَ فَصَامَ لِسَانُهُ عَنْ فَاحِشِ الْقَوْلِ ...

وَأَحْجَمَ جَنَانهُ(١) عَنِ الْمَآثِمِ ...

وَعَفَّتْ(٢) نَفْسُهُ عَنِ الشَّهَوَاتِ ...

وَذَكَرَ عَلَىٰ الدَّوَامِ قَوْلَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ) .

* * *

---

(١) جنانه : فؤاده .

(١) عفت : تركت وزهدت .

بِـرُّ الأُمَّهات

رُوِيَ أَنَّ جَمَاعَةً مِنْ صُلَحَاءِ الفِتْيَانِ ، طَرَقُوا الْبَابَ عَلَىٰ رَفِيقٍ لَهُمْ ، فَأَبْطَأَ عَلَيْهِمْ بِالْخُرُوجِ .

فَلَمَّا خَرَجَ إِلَيْهِمْ ... قَالُوا : مَا شَغَلَكَ عَنَّا ؟!

قَالَ : كُنْتُ أُمَرِّغُ[1] وَجْهِي فِي رِيَاضِ الجَنَّةِ !!

قَالُوا : وَيْحَكَ !! ... وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَمَازِلْنَا فِي هَذِهِ الدَّارِ الْفَانِيَةِ[2] ؟!

فَقَالَ : أَمَا بَلَغَكُمْ مَا بَلَغَنِي مِنْ أَنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ أَقْدَامِ الأُمَّهَاتِ ...

---

(١) أمرغ : أقلِّب .

(٢) الدار الفانية : هذه الدنيا .

وَأَنَا مَازِلْتُ مُنْذُ رُوِيَ لِي ذَلِكَ أُقَبِّلُ قَدَمَيْهَا عِنْدَ كُلِّ صَبَاحٍ.

* * *

وَكَيْفَ لَا تَكُونُ الجَنَّةُ تَحْتَ قَدَمَي الْأُمِّ وَهِيَ أَحَدُ الْأَبَوَيْنِ اللَّذَيْنِ قَرَنَ اللَّهُ شُكْرَهُ بِشُكْرِهِمَا... وَجَمَعَ تَوْحِيدَهُ مَعَ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا فَقَالَ ـ عَلَتْ كَلِمَتُهُ ـ:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَىٰ وَهْنٍ، وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ، إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾(١)

وَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً...﴾(٢)

وَالشُّكْرُ لِلْأُمِّ لَيْسَ لَهُ حَدٌّ، فَقَدْ جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ عُمَرَ ابْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ:

---

(١) سورة لقمان: آية ١٤.

(٢) سورة الإسراء: آية ٢٣.

إِنَّ لِي أُمًّا بَلَغَ بِهَا الكِبَرُ وَالْعَجْزُ مَا جَعَلَنِي أَحْمِلُهَا عَلَىٰ ظَهْرِي كُلَّمَا أَرَادَتْ قَضَاءَ الْحَاجَةِ ... فَهَلْ أَدَّيْتُ حَقَّهَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟!

فَقَالَ عُمَرُ : لَا ... إِنَّكَ لَمْ تُوَفِّهَا حَقَّهَا لِأَنَّهَا كَانَتْ تَصْنَعُ بِكَ ذَلِكَ وَهِيَ تَتَمَنَّىٰ بَقَاءَكَ ... وَأَنْتَ تَصْنَعُهُ بِهَا وَأَنْتَ تَتَمَنَّىٰ فِرَاقَهَا .

* * *

وَلَعَلَّ أَرْوَعَ مَثَلٍ عَلَىٰ بِرِّ الْأُمِّ هُوَ مَا فَعَلَهُ الرَّسُولُ الكَرِيمُ ﷺ ، حِينَ قَدِمَتْ عَلَيْهِ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةُ(١) رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهَا وَهِيَ أُمُّهُ مِنَ الرَّضَاعِ ...

فَاحْتَفَىٰ بِهَا أَعْظَمَ الْحَفَاوَةِ ، وأَكْرَمَهَا أَبْلَغَ الْإِكْرَامِ ، وَأَكْرَمَهَا الصَّحَابَةُ إِكْرَاماً لَهُ ...

فَقَدْ رُوِيَ أَنَّهَا لَمَّا قَدِمَتْ عَلَيْهِ ، بَسَطَ لَهَا رِدَاءَهُ لِتَجْلِسَ عَلَيْهِ ، وَقَالَ : (مَرْحَباً بِأُمِّي ...) .

---

(١) حليمة السعدية : انظرها في كتاب « صور من حياة الصّحابيات » للمؤلف .

ثُمَّ قَالَ لَهَا : (اشْفَعِي تُشَفَّعِي وَسَلِي تُعْطَيْ) .

فَقَالَتْ : قَوْمِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ، جِئْتُ أَتَشَفَّعُ فِيهِمْ .

فَقَالَ : (أَمَّا حَقِّي وَحَقُّ بَنِي هَاشِمٍ فَهُوَ لَكِ ...) .

فَقَامَ النَّاسُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ ، وَقَالُوا :

وَحَقُّنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ .

ثُمَّ وَصَلَهَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ ، وَوَهَبَ لَهَا أَمَةً تَخْدِمُهَا ، وَأَعْطَاهَا نَصِيبَهُ مِنْ « حُنَيْنٍ » ...

فَبَاعَهُ أَبْنَاؤهَا بَعْدَ ذَلِكَ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ(١) بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ .

* * *

وَقَدْ تَأَسَّىٰ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ مَرِّ الْعُصُورِ بِنَبِيِّهِمْ ، وَعَمِلُوا بِوَحْيِ دِينِهِمْ ، حَتَّىٰ طَفِحَتْ(٢) كُتُبُ التَّارِيخِ بِأَخْبَارِ بِرِّ الْأَبْنَاءِ بِالْآبَاءِ .

---

(١) عثمان بن عفان : انظره في كتاب « صور من حياة الصَّحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٢) طفحت : امتلأت عن آخرها .

قَالَ الـمَأْمُونُ :

لَمْ أَرَ أَحَداً أَبَرَّ مِنَ الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَىٰ بِأَبَوَيْهِ ، فَقَدْ بَلَغَ مِنْ بِرِّهِ بِأُمِّهِ : أَنَّهَا كَانَتْ لَا تَتَوَضَّأُ إِلَّا بِمَاءٍ سَاخِنٍ فَأَعْوَزَهُمُ الوَقُودُ ذَاتَ لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ ...

فَلَمَّا أَخَذَتْ أُمُّهُ مَضْجَعَهَا قَامَ إِلَىٰ إِنَاءٍ مِنْ نُحَاسٍ فَمَلَأَهُ مَاءً ، وَأَدْنَاهُ مِنَ الْمِصْبَاحِ ، وَلَمْ يَزَلْ قَائِماً وَالْإِنَاءُ بِيَدِهِ إِلَىٰ الْفَجْرِ حَيْثُ اسْتَيْقَظَتْ أُمُّهُ مِنْ مَنَامِهَا(١) فَوَجَدَتِ الْمَاءَ سَاخِناً .

* * *

عَلَىٰ أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ لَا يُعَدُّ شَيْئًا إِذَا قِيسَ بِحُقُوقِ الْأُمِّ ، فَهِيَ تَحْمِلُ وَلِيدَهَا فِي أَحْشَائِهَا ، وَتُغَذِّيهِ مِنْ دِمَائِهَا ... فَإِذَا خَرَجَ إِلَىٰ الْحَيَاةِ أَعْطَتْهُ ثَدْيَيْهَا لِيَمْتَصَّ مِنْهَا مَاءَ الْحَيَاةِ .

ثُمَّ تَعِيشُ بَعْدَ ذَلِكَ لَهُ ...

---

(١) منامها : نومها .

فَإِذَا ابْتَسَمَ رَأَتِ الدُّنْيَا تبتَسِمُ مِنْ خِلَالِ شَفَتَيهِ ...

وَإِنْ بَكَىٰ أَظْلَمَتِ الدُّنْيَا فِي عَيْنَيْهَا ...

وَإِنْ مَرِضَ هَجَرَتْ لَهُ مَنَامَهَا، وَنَسِيَتْ مِنْ أَجْلِهِ طَعَامَهَا ...

تَحْرِمُ نَفْسَهَا لتُعْطِيَهُ ...

وَتُجِيعُ بَطْنَهَا لِتُشْبِعَهُ ...

وَتُعَرِّي جَسَدَهَا لِتَكْسُوَهُ ...

ثُمَّ هِيَ تَبْنِيهِ لَبِنَةً فَلَبِنَةً، فَلَا يَزِيدُ عُمْرُهُ يَوْماً حَتَّىٰ يَنْقُصَ عُمْرُهَا شَهْراً ...

وَلَا يَدْنُو مِنَ الشَّبَابِ سَنَةً، حَتَّىٰ تَدْنُوَ مِنَ الهَرَمِ سَنَوَاتٍ.

* * *

لَوْ أَنَّ جَمَاعَةً تَكَلَّفُوا مِنْ أَمْرِهِمْ شَطَطاً[1]، فَأَخَذَ

---

(١) شططاً: تجاوز الحد.

كُلٍّ مِنْهُمْ قَلَماً وَدَفْتَراً ، وَجَعَلُوا يُدَوِّنُونَ فِيهَا الأَعْمَالَ الَّتِي تَقُومُ بِهَا الأُمَّهَاتُ مُنْذُ الزَّوَاجِ إِلَىٰ الْفَنَاءِ، وَحَسَبُوا لَهُنَّ سَاعَاتِ الْعَمَلِ فِي آنَاءِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ... وَقَدَّرُوا لِكُلِّ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْعَمَلِ أَجْراً زَهِيداً، وَطُولِبَ الأَبْنَاءُ وَالآبَاءُ بِأَنْ يَدْفَعُوا مَا عَلَيْهِمْ لِلأُمَّهَاتِ ... لَفَرُّوا مِنْ ثِقَلِ الدَّيْنِ، وَاعْتَصَمُوا بِالجِبَالِ هَرَباً مِمَّا يُطَالَبُونَ بِهِ ...

ثُمَّ لَارْتَدُّوا فَرِحِينَ مُسْتَبْشِرِينَ حِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا مُطَالَبَةَ وَلَا مُحَاسَبَةَ.

لَكِنَّ الأُمَّ تَفْعَلُ ذَلِكَ كُلَّهُ رَاضِيَةَ النَّفْسِ ...

طَيِّبَةَ القَلْبِ، مُرْتَاحَةَ الْفُؤَادِ ...

لَا تَبْتَغِي جَزَاءً وَلَا شُكُوراً.

* * *

وَهَلْ هُنَاكَ مِثْلُ قَلْبِ الأُمِّ؟!

لَوْ كَانَ مَا فِيهِ مِنْ حَنَانٍ مَاءً وَفَاضَ عَلَىٰ الدُّنْيَا لَمَلأَ الْبِحَارَ وَالأَنْهَارَ ...

وَلَوْ أَنَّ مَا فِيهِ مِنْ رَأْفَةٍ ضَيَاءٌ وَأَشْرَقَ عَلَىٰ الْكَوْنِ لَأَخْمَلَ[1] الْأَفْلَاكَ، وَكَسَفَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ...

وَلِلَّهِ ذَلِكَ الشَّاعِرُ الَّذِي صَوَّرَ لَنَا فُؤَادَ الْأُمِّ مِنْ خِلَالِ تِلْكَ الْأُسْطُورَةِ الَّتِي أَغْرَىٰ فِيهَا إِبْلِيسُ فَتًى طَائِشاً، فَقَالَ:

أَغْرَىٰ امْرُؤٌ يَوْماً غُلَاماً جَاهِلاً
بِنُقُودِهِ حَتَّىٰ يَنَالَ بِهِ الْوَطَرْ[2]
قَالَ: ائْتِنِي بِفُؤَادِ أُمِّكَ يَا فَتَىٰ
وَلَكَ الدَّرَاهِمُ وَالْجَوَاهِرُ وَالدُّرَرْ
فَمَضَىٰ وَأَغْمَدَ خِنْجَراً فِي صَدْرِهَا
وَالْقَلْبَ أَخْرَجَهُ وَعَادَ عَلَىٰ الْأَثَرْ[3]
لَكِنَّهُ مِنْ فَرْطِ سُرْعَتِهِ هَوَىٰ
فَتَدَحْرَجَ الْقَلْبُ الْمُقَطَّعُ إِذْ عَثَرْ

---

(١) أخمل: أخفاها فلم تعد تُذكر.
(٢) الوطر: الحاجة والبغية.
(٣) عاد عَلَىٰ الأثر: أي في الحال.

نَـادَاهُ قَـلْـبُ الأُمِّ وَهُـوَ مُـعَـفَّـرٌ[1]:

وَلَدِي ، حَبِيبِي ، هَلْ أَصَابَكَ مِنْ ضَرَرْ ؟!

وَبَعْدُ :

فَاللَّهُمَّ جازِ أُمَّهَاتِنَا عَنَّا خَيْرَ الْجَزَاءِ ...

اللَّهُمَّ إِلَّا يَكُنْ فِي الدُّنْيَا إِلَّا خَيْرٌ وَاحِدٌ لِي أَوْ لِأُمِّي فَخُصَّهَا بِهِ مِنْ دُونِي ...

وَإِلَّا يَكُنْ فِي الدُّنْيَا إِلَّا شَرٌّ وَاحِدٌ كَتَبْتَهُ عَلَيَّ أَوْ عَلَىٰ أُمِّي ...

فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَعَنْهَا ، أَوِ اجْعَلْهُ لِي مِنْ دُونِهَا .

* * *

وَأَخِيراً فَإِنَّ الأُمَّهَاتِ اللَّوَاتِي يُرَبِّينَ الْعُقُولَ

(١) معفر : ملوث بالتراب .

وَالْأَفَهَامَ ... لَسْنَ أَقَلَّ حُقُوقاً مِنَ الْأُمَّهَاتِ اللَّوَاتِي يُرَبِّينَ النُّفُوسَ وَالْأَجْسَامَ ...

فَاجْزِهِنَّ اللَّهُمَّ عَنَّا أَفْضَلَ الْجَزَاءِ.

* * *

التَّرَفُ فِي البِرِّ

لَقَدْ اخْتَرْتُ لِمَوْضُوعِنَا هَذَا عُنْوَاناً هُوَ :

« التَّرَفُ فِي البِرِّ » ، وَرُبَّ قَائِلٍ يَقُولُ :

وَهَلْ فِي البِرِّ تَرَفٌ ؟!

وَأُبَادِرُ فَأُجِيبُ عَلَىٰ هَذَا التَّسَاؤُلِ بِنَعَمْ ...

ذَلِكَ لِأَنَّ البِرَّ بَلَغَ لَدَىٰ أَسْلَافِنَا الْأَكْرَمِينَ حَدًّا لَا يَرْقَىٰ[1] إِلَيْهِ خَيَالُ الـمُتَخَيِّلِينَ ، وَلَا يَلْحَقُ بِهِ تَصَوُّرُ الـمُتَصَوِّرِينَ .

فَلَقَدْ أَقْبَلَ الـمُسْلِمُونَ عَلَىٰ الْقِيَامِ بِأَعْمَالِ البِرِّ إِقْبَالاً لَمْ تَشْهَدْ لَهُ البَشَرِيَّةُ نَظِيراً مِنْ قَبْلُ ...

---

(١) لا يرقىٰ إليه : لا يرتفع ولا يعلو إليه .

فَبَنَوُا الْمَسَاجِدَ، وَأَسَّسُوا المَدَارِسَ، وَأَنْشَأُوا المَكْتَبَاتِ ... وَأَقَامُوا المَارِسْتَانَاتِ، وَشَيَّدُوا النُّزُلَ وَالْخَانَاتِ، وَأَجْرَوُا المِيَاهَ حَتَّىٰ غَصَّتْ دِيَارُهُمْ بِهَذِهِ المُؤَسَّسَاتِ الخَيِّرَةِ، وَعَمُرَتْ أَقْطَارُهُمْ بِتِلْكَ المَرَافِقِ النَّافِعَةِ.

وَحَسْبُكَ أَنْ تَطُوفَ بِالْأَحْيَاءِ الْقَدِيمَةِ فِي أَيَّةِ مَدِينَةٍ مِنْ مُدُنِ المُسْلِمِينَ العَرِيقَةِ، لِتَرَىٰ كَيْفَ تَتَزَاحَمُ المَسَاجِدُ فِي أَرْجَائِهَا، حَتَّىٰ تُوشِكَ أَنْ تَتَجَاوَرَ ...

وَكَيْفَ تَتَقَارَبُ المَآذِنُ في أَجْوَائِهَا، حَتَّىٰ يُخَيَّلَ إِلَيْكَ أَنَّهَا تَهُمُّ أَنْ تَتَعَانَقَ.

* * *

وَمَا يُقَالُ عَنِ المَسَاجِدِ يُقَالُ عَنِ المَدَارِسِ أَيْضاً، لِأَنَّ المَسْجِدَ وَالمَدْرَسَةَ وُلِدَا فِي الإِسْلَامِ تَوْأَمَيْنِ، وَعَاشَا فِي كَنَفِهِ شَقِيقَيْنِ ...

وَذَلِكَ مُنْذُ أَنْشَأَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ مَسْجِدَهُ

فِي المَدِينَةِ ، وَاتَّخَذَ مِنْهُ مَكَاناً لِتَعْلِيمِ أَبْنَاءِ الصَّحَابَةِ القِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ .

ثُمَّ دَأَبَ[1] المُسْلِمُونَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ بِنَاءِ المَدْرَسَةِ فِي كَنَفِ المَسْجِدِ ...

مِمَّا جَعَلَنَا نَشْعُرُ عَلَىٰ الدَّوَامِ أَنَّ العِبَادَةَ لَا تَكْمُلُ إِلَّا بِالْعِلْمِ ، وَأَنَّ الْعِلْمَ ضَرْبٌ مِنَ الْعِبَادَةِ .

وَلَمَّا كَثُرَتْ هَذِهِ المُؤَسَّسَاتُ فِي دِيَارِ المُسْلِمِينَ ، كَثْرَةً فَاقَتْ كُلَّ تَقْدِيرٍ ... أَخَذَ المُسْلِمُونَ يَسْلُكُونَ فِي فِعْلِ الخَيْرِ دُرُوباً مَا خَطَرَتْ عَلَىٰ بَالٍ وَيَبْتَدِعُونَ مِنْهُ صُنُوفاً مَا عَنَّتْ[2] لِفِكْرٍ .

* * *

فَفِي « دِمَشْقَ » ـ مَثَلاً ـ وَقْفٌ ذُو عَقَارَاتٍ ثَمِينَةٍ وَغِلَالٍ وَافِيَةٍ ، وَقَفَهُ أَحَدُ المُحْسِنِينَ لِيُنْفِقَ رَيْعَهُ عَلَىٰ

---

(١) دأب : جدَّ في العمل .
(٢) ما عَنَّت لفكر : أي ما ظهرت ولا جالت في خاطر إنسان .

بِضْعَةِ رِجَالٍ مِمَّنْ يتَّسِمُونَ بِصَبَاحَةِ[1] الْوَجْهِ، وَخِفَّةِ الظِّلِّ، وَحَلَاوَةِ الْحَدِيثِ، وَطِيبِ الْمُجَالَسَةِ...

أَمَّا مُهِمَّتُهُمْ فَالطَّوَافُ عَلَىٰ أَحْيَاءِ «دِمَشْقَ» لِعِيَادَةِ مَرْضَىٰ الْمُسْلِمِينَ... بُغْيَةَ إِينَاسِهِمْ بِالْكَلِمَةِ الْحُلْوَةِ، وَإِبْهَاجِهِمْ بِالْخَبَرِ السَّارِّ، وَإِمْتَاعِهِمْ بِالطُّرْفَةِ الْمُسْتَبْشِرَةِ...

فَلَا يَخْرُجُ أَحَدُهُمْ مِنْ عِنْدِ الْمَرِيضِ إِلَّا وَقَدْ شَحَنَ نَفْسَهُ بِالْأَمَلِ، وَأَتْرَعَ[2] فُؤَادَهُ بِالطُّمَأْنِينَةِ، وَبَثَّ فِي جِسْمِهِ الْقُوَّةَ، وَصَبَّ فِي أَعْصَابِهِ النَّشَاطَ.

* * *

وَلَا تَظُنَّنَ - أَيُّهَا الْقَارِئُ الْكَرِيمُ - أَنَّ هَذَا الْوَقْفَ وَحِيدٌ فُرَادٌ[3] فِي طَرَافَتِهِ وَغَرَابَتِهِ...

فَهُنَاكَ إِلَىٰ جَانِبِهِ وَقْفٌ آخَرُ أَكْثَرُ عَقَارَاتٍ وَأَوْفَرُ

---

(١) صباحة الوجه: إشراقه وبشاشته.
(٢) أترع فؤاده: ملأ قلبه.
(٣) فراد: فريد لا مثيل له.

مَوَارِدَ ، وَقَفَهُ صَاحِبُهُ ـ أَجْزَلَ اللَّهُ مَثُوبَتَهُ ـ لِيُنْفِقَ مِنْ رَيْعِهِ عَلَىٰ أَثْمَانِ مَا يَكْسِرُهُ الخَدَمُ الصِّغَارُ أَوْ يُتْلِفُونَهُ لِأَسْيَادِهِمْ ...

فَإِذَا كَسَرَ غُلَامٌ مِنْ هَؤُلَاءِ آنِيَةً غَالِيَةً لِسَيِّدِهِ ، أَوْ أَتْلَفَ لَهُ قِطْعَةً ثَمِينَةً وَخَشِيَ أَنْ يُعَاقِبَهُ عَلَىٰ فَعْلَتِهِ ، مَضَىٰ إِلَىٰ دَارِ هَذَا الْوَقْفِ ، وَمَعَهُ مَا كَسَرَهُ أَوْ أَتْلَفَهُ ... فَإِمَّا أَنْ يُعَوَّضَ عَنْهُ بِمَا يُنَاظِرُهُ ، وَإِمَّا أَنْ يَدْفَعَ لَهُ ثَمَنَهُ إِذَا عَزَّ(١) النَّظِيرُ ...

وَعِنْدَ ذَلِكَ يَعُودُ إِلَىٰ سَيِّدِهِ آمِناً مِنْ غَضَبِهِ ، مُطْمَئِنًّا إِلَىٰ أَنَّهُ لَنْ يَنَالَهُ بِأَذًى .

* * *

وَإِلَىٰ جَانِبِ هَذَيْنِ الْوَقْفَيْنِ وَقْفٌ ثَالِثٌ لَا يَقِلُّ عَنْهُمَا طَرَافَةً ، فَقَدْ وَقَفَهُ صَاحِبُهُ ـ طَيَّبَ اللَّهُ رُوحَهُ ـ لِتُصْنَعَ مِنْ رَيْعِهِ الفَطَائِرُ فِي فَجْرِ كُلِّ يَوْمٍ ... فَإِذَا خَرَجَ

---

(١) عزَّ : استحال وجوده .

الْعُمَّالُ مِنَ المَسَاجِدِ بَعْدَ أَدَاءِ الصَّلَاةِ ، وَتَوَجَّهُوا إِلَىٰ مُزَاوَلَةِ أَعْمَالِهِمْ ...

عَرَّجَ مَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ عَلَىٰ دَارِ هَذَا الْوَقْفِ ، حَيْثُ يُزَوِّدُهُ الْقَائِمُونَ عَلَيْهِ بِفَطِيرَتَيْنِ سَاخِنَتَيْنِ حُشِيَتْ إِحْدَاهُمَا بِاللَّحْمِ وَالْأُخْرَىٰ بِالْجُبْنِ ...

فَيَتَنَاوَلُهُمَا هَنِيئًا مَرِيئًا مِنْ غَيْرِ مَنٍّ وَلَا أَذًى .

* * *

وَلَمْ يَقْتَصِرْ بِرُّ هَؤُلَاءِ الْمُحْسِنِينَ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ وَحْدَهُ ، وَإِنَّمَا تَعَدَّاهُ إِلَىٰ الْحَيَوَانِ أَيْضاً ...

وَلِذَلِكَ أَمْثِلَةٌ كَثِيرَةٌ ، لَعَلَّ مِنْ أَرْوَعِهَا وَقْفُ مَرْجَةِ الحَشِيشِ ... وَمَرْجَةُ الْحَشِيشِ هَذِهِ مَنْطِقَةٌ فَسِيحَةُ الجَنَبَاتِ خَصِيبَةُ التُّرْبَةِ تَقَعُ عَلَىٰ ضِفَافِ « بَرَدَىٰ » حَيْثُ يُقَامُ مَعْرِضُ « دِمَشْقَ » الدَّوْلِيُّ الْيَوْمَ ...

وَقَفَهَا صَاحِبُهَا - أَجْزَلَ اللَّهُ أَجْرَهُ - عَلَىٰ الدَّوَابِّ الَّتِي أُصِيبَتْ فِي سَاحَاتِ الجِهَادِ إِصَابَاتٍ أَعْجَزَتْهَا عَنِ

الْعَمِلِ، أَوْ أَدْرَكَتْهَا الشَّيْخُوخَةُ فَسَرَّحَهَا[1] أَصْحَابُهَا لِعَدَمِ جَدْوَاهَا لَهُمْ ... وَقَفَهَا عَلَيْهَا لِتَرْعَىٰ مِنْ حَشَائِشِهَا الغَضَّةِ، وَتَشْرَبَ مِنْ مِيَاهِهَا الثَّرَّةِ، وَتَحْيَا فِي أَكْنَافِهَا إِلَىٰ أَنْ يُدْرِكَهَا الأَجَلُ المَحْتُومُ.

* * *

أَعَرَفْتَ - قَارِئِي الْكَرِيمُ - لِمَ جَعَلْنَا عُنْوَانَ مَوْضُوعِنَا هَذَا « التَّرَفُ فِي البِرِّ » ؟ ... لَاشَكَّ أَنَّكَ عَرَفْتَ ...

فَقُلْ مَعَنَا لِلَّذِينَ يَمْلِكُونَ اليَوْمَ أَكْثَرَ مِمَّا مَلَكَ هَؤُلَاءِ بِالْأَمْسِ وَلَكِنَّهُمْ لَا يَفْعَلُونَ شَيْئًا مِمَّا فَعَلُوهُ ... قُلْ لَهُمْ:

أَقِلُّوا[2] عَلَيْهِمْ لَا أَباً لِأَبِيكُمُ
مِنَ اللَّوْمِ أَوْ سُدُّوا[3] المَكَانَ الَّذِي سَدُّوا

* * *

(١) سرَّحوها: اطلقوها استغناء عنها ولم يعطوا لها اهتماما.
(٢) أقلوا: لا تكثروا الكلام والملامة.
(٣) سدُّوا: قوموا مقامهم وافعلوا فعلهم.

الذَّوْقُ الِاجْتِمَاعِيُّ

لَوْ بَحَثْنَا فِي مُعْجَمَاتِ اللُّغَةِ عَنْ مَادَّةِ « ذَاقَ » لَوَجَدْنَاهَا تَقُولُ :

ذَاقَ الشَّيْءَ يَذُوقُهُ ذَوْقاً وَذَوَقَاناً وَمَذَاقاً : أَيْ اخْتَبَرَ طَعْمَهُ ، وَهَذَا مَا يُدْعَىٰ بِالذَّوْقِ الحِسِّيِّ ...

وَهُنَاكَ إِلَىٰ جَانِبِ هَذَا الذَّوْقِ الحِسِّيِّ ذَوقٌ آخَرُ تَنَبَّهَ إِلَيْهِ ابْنُ خَلْدُونَ وَهُوَ الذَّوْقُ الْأَدَبِيُّ أَوِ الذَّوْقُ الْفَنِّيُّ ، وَهُوَ مَوْهِبَةٌ يُقْتَدَرُ بِهَا عَلَىٰ إِدْرَاكِ الْجَمَالِ فِي الْآثَارِ الْفَنِّيَّةِ وَتَقْوِيمِهِ ، وَالِاسْتِمْتَاعِ بِهِ ، وَالرَّغْبَةِ فِي مُحَاكَاتِهِ .

وَإِلَىٰ جَانِبِ هَذَيْنِ اللَّوْنَيْنِ مِنَ الذَّوْقِ يُوجَدُ ضَرْبٌ ثَالِثٌ هُوَ الذَّوْقُ الِاجْتِمَاعِيُّ ، وَهُوَ مَوْضُوعُ حَدِيثِنَا .

* * *

وَالذَّوْقُ الِاجْتِمَاعِيُّ مَوْهِبَةٌ فِطْرِيَّةٌ كَسْبِيَّةٌ يَقْتَدِرُ بِهَا الْمَرْءُ عَلَىٰ حُسْنِ اسْتِخْدَامِ مَلَكَاتِهِ وَطَاقَاتِهِ، وَيُنَظِّمُ بِوَسَاطَتِهَا سُلُوكَهُ الِاجْتِمَاعِيَّ وَيُنَقِّيهِ مِنَ الشَّوَائِبِ .

وَلَا يَذْهَبَنَّ بِكَ الظَّنُّ - أَيُّهَا الْقَارِئُ الْكَرِيمُ - إِلَىٰ أَنَّنَا نُرِيدُ بِالذَّوْقِ الِاجْتِمَاعِيِّ الذَّكَاءَ، فَهَذَا الذَّوْقُ شَيْءٌ آخَرُ غَيْرُ الذَّكَاءِ، وَأَثْمَنُ مِنْهُ، وَأَقَلُّ وُجُوداً لَدَىٰ الْأَفْرَادِ وَأَنْدَرُ .

فَالْمُخْتَصُّونَ يَقُولُونَ :

إِنَّ نِسْبَةَ أَصْحَابِ هَذِهِ الْمَوْهِبَةِ إِلَىٰ الْأَذْكِيَاءِ تَقِلُّ عَنْ ثَلَاثَةٍ فِي الْمِائَةِ .

وَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُ كُلَّمَا وَلَدَتِ الْأُمَّهَاتُ أَرْبَعِينَ ذَكِيًّا وَلَدْنَ بَيْنَهُمْ وَاحِداً فَقَطْ مِمَّنْ يَتَمَتَّعُونَ بِمَوْهِبَةِ الذَّوْقِ الِاجْتِمَاعِيِّ .

* * *

فَإِذَا عَلِمْتَ ـ أَيُّهَا الْقَارِئُ الْكَرِيمُ ـ أَنَّ نَجَاحَ النَّاسِ فِي حَيَاتِهِمْ يَتَوَقَّفُ عَلَىٰ هَذِهِ الـمَوْهِبَةِ الثَّمِينَةِ أَكْثَرَ مِمَّا يَتَوَقَّفُ عَلَىٰ سَائِرِ الـمَوَاهِبِ الْأُخْرَىٰ مِنْ ذَكَاءٍ وَنَحْوِهِ، أَدْرَكْتَ لِمَ يَكْثُرُ الْأَذْكِيَاءُ وَيَقِلُّ النَّاجِحُونَ مِنْهُمْ.

وَالذَّوْقُ الِاجْتِمَاعِيُّ شَرْطٌ أَسَاسِيٌّ لَابُدَّ مِنْ تَوَافُرِهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِنَا أَوْ تَصَرُّفٍ مِنْ تَصَرُّفَاتِنَا حَتَّىٰ يُكَلَّلَ بِالنَّجَاحِ، فَهُوَ بِمَثَابَةِ الْمِلْحِ لِكُلِّ طَعَامٍ.

فَفَاعِلُ الْخَيْرِ مَثَلاً لَا يَكْفِيهِ أَنْ يَصْنَعَ الْخَيْرَ فَقَطْ، وَإِنَّمَا عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي الْوَقْتِ الـمُنَاسِبِ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ عَلَىٰ الشَّكْلِ الـمُنَاسِبِ...

وَهَذَا كُلُّهُ إِنَّمَا يَتَحَقَّقُ بِهَدْيٍ(١) مِنَ الذَّوْقِ الِاجْتِمَاعِيِّ الدَّقِيقِ الـمُرْهَفِ.

* * *

(١) هَدْي: سيرة وطريقة.

وَالسِّيَاسِيُّ الَّذِي يَرُومُ النَّجَاحَ[1]، لَا يَكْفِيهِ أَنْ يَمْلِكَ الذَّكَاءَ الوَقَّادَ، وَالْبَدِيهَةَ الْحَاضِرَةَ، وَالْبَيَانَ الْمُطَاوِعَ لِكَيْ يُحَقِّقَ حُلْمَهُ ...

وَإِنَّمَا هُوَ بِحَاجَةٍ فَوْقَ ذَلِكَ إِلَىٰ الذَّوْقِ الِاجْتِمَاعِيِّ الْيَقِظِ حَتَّىٰ يَضْبِطَ مَوَاقِفَهُ مِنْ أَنْ تَزِلَّ، وَيَزِنَ تَصَرُّفَاتِهِ فَلَا تَخْتَلَّ ...

فَإِذَا هُوَ يَصْمُتُ إِذَا كَانَ الْكَلَامُ شَيْناً[2]، وَيَنْطِقُ إِذَا غَدَا زَيْناً، وَيَشْتَدُّ إِذَا كَانَتِ الشِّدَّةُ أَنْجَعَ[3]، وَيَلِينُ إِذَا كَانَ اللِّينُ أَنْفَعَ.

* * *

وَالتَّاجِرُ الْمُوَفَّقُ هُوَ الَّذِي يَمْلِكُ هَذِهِ الْمَوْهِبَةَ أَيْضاً، فَبِهَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَخْتَارُ سِلَعَهُ، وَبِهَا أَيْضاً يَعْرِفُ كَيْفَ يُحْسِنُ عَرْضَهَا عَلَىٰ زَبَائِنِهِ ...

وَبِوَاسِطَتِهَا يَعْرِفُ كَيْفَ يُرَغِّبُهُمْ فِيهَا، وَبِهَذِي

---

(١) يروم: يريد. (٢) شَيْناً: قبيحاً. (٣) أنجع: أحسن وأنفع.

مِنْهَا يُمَهِّدُ طَرِيقَهُ إِلَىٰ قُلُوبِهِمْ حَتَّىٰ يُصْبِحُوا أَصْدِقَاءَ لَهُ، يَثِقُونَ بِهِ وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ.

*   *   *

وَالدَّاعِيَةُ إِلَىٰ اللَّهِ لَا يَكْفِيهِ أَنْ يَكُونَ دَيِّناً صَيِّناً وَافِيَ الْمَعْرِفَةِ وَافِرَ الْبَيَانِ، فَتِلْكَ شُرُوطٌ لَازِمَةٌ غَيْرُ كَافِيَةٍ كَمَا يَقُولُ عُلَمَاءُ الرِّيَاضِيَّاتِ...

وَإِنَّمَا هُوَ بِحَاجَةٍ قَبْلَ ذَلِكَ كُلِّهِ وَبَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ لِأَنْ يَتَمَتَّعَ بِهَذَا الذَّوْقِ الِاجْتِمَاعِيِّ الْمُرْهَفِ...

فَلَا يُطِيلُ فِي مَقَامِ الْإِيجَازِ، وَلَا يَعْنُفُ فِي مَوَاضِعِ اللِّينِ، وَلَا يُخَاطِبُ الشَّبَابَ بِمَا يُخَاطِبُ الْكُهُولَ، وَلَا يُكَلِّمُ الْخَاصَّةَ بِمَا لَا يَصْلُحُ إِلَّا لِلْعَامَّةِ.

إِنَّ الدَّاعِيَةَ أَشَدُّ النَّاسِ حَاجَةً إِلَىٰ ذَلِكَ الذَّوْقِ الِاجْتِمَاعِيِّ الْمُرْهَفِ الَّذِي يُتِيحُ لَهُ أَنْ يَسْتَشِفَّ[1] مَا فِي نُفُوسِ سَامِعِيهِ...

---

(١) يستشف: ينظر ما وراء الستر ويتحسس ما يخبئه صاحبه في نفسه.

وَأَنْ يَقِفَ عَلَىٰ حَقِيقَةِ مَشَاعِرِهِمْ نَحْوَهُ ، وَأَنْ يَعْرِفَ مَا إِذَا كَانَتْ حَرَكَتُهُمْ تَمَلْمُلاً مِمَّا يَقُولُ أَوِ اسْتِحْسَاناً لَهُ .

وَنَحْنُ بَعْدَ هَذَا مُحْتَاجُونَ إِلَىٰ هَذَا الذَّوْقِ الِاجْتِمَاعِيِّ فِي سُلُوكِنَا مَعَ الآخَرِينَ وَمُعَاشَرَتِنَا لَهُمْ .

يَأْتِيكَ - مَثَلاً - إِنْسَانٌ لِحَاجَةٍ يَبْتَغِيهَا عِنْدَكَ ، أَوْ لِغَيْرِ حَاجَةٍ أَحْيَاناً ، وَتَكُونُ أَنْتَ غَارِقاً فِي مَشَاغِلِكَ مِنْ أَخْمَصِ[١] قَدَمَيْكَ إِلَىٰ قِمَّةِ رَأْسِكَ ؛ فَلَا يُحَدِّثُكَ فِيمَا جَاءَ لَهُ مِنْ أَمْرٍ . . .

وَإِنَّمَا يَفْتَحُ أَبْوَابَ كَلَامِهِ عَلَىٰ مَصَارِيعِهَا[٢] ، فَلَا يَكَادُ يَخْرُجُ مِنْ حَدِيثٍ حَتَّىٰ يَدْخُلَ فِي آخَرَ ، وَقَدْ يُغْرِيهِ بِالْإِطَالَةِ مَا يَرَاهُ مِنْ فَرْطِ أَدَبِكَ وَحُسْنِ إِقْبَالِكَ عَلَيْهِ . . .

وَهُوَ لَا يَعْلَمُ أَنَّ كَبِدَكَ يَتَشَقَّقُ غَيْظاً مِنْهُ ، وَأَنَّ

---

(١) أخمص القدم : باطن القدم .
(٢) المصاريع : واحدها مصراع ، وهو أحد جانبي الباب .

نَفْسَكَ تَتَمَزَّقُ حَسْرَةً عَلَىٰ الْوَقْتِ الَّذِي سَلَبَهُ مِنْكَ .

* * *

وَلَوْ مَضَيْنَا نُعَدِّدُ مَزَايَا هَٰذَا الذَّوْقِ الِاجْتِمَاعِيِّ وَأَثَرَهُ فِي الْحَيَاةِ لَطَالَ بِنَا الْمَقَالُ ، وَضَاقَ عَنَّا الْمَقَامُ ، وَحَسْبُنَا أَنْ نَقُولَ : « بِأَنَّ هَذِهِ الْمَوْهِبَةَ سَيِّدَةُ الْمَوَاهِبِ » .

وَمِنْ هُنَا وَجَبَ عَلَىٰ الْمُرَبِّينَ أَنْ يُولُوا هَذِهِ الْمَوْهِبَةَ مَا تَسْتَحِقُّهُ مِنَ اهْتِمَامٍ ...

وَذَلِكَ بِتَنْمِيَتِهَا وَصَقْلِهَا[1] عِنْدَ مَنْ يَمْلِكُونَهَا مِنَ النَّشْءِ ...

وَغَرْسِهَا وَتَعَهُّدِهَا عِنْدَ مَنْ لَا يَمْلِكُونَهَا مِنْهُمْ عَنْ طَرِيقِ الْمُلَاحَظَةِ الدَّقِيقَةِ الرَّقِيقَةِ ، وَاللَّفْتَةِ الْوَادِعَةِ الْحَانِيَةِ ، وَالْقُدْوَةِ الصَّالِحَةِ الَّتِي لَا تَشُوبُهَا شَوَائِبُ التَّكَلُّفِ أَوِ الْغُرُورِ .

---

(١) صقلها : تلميعها وتنعيمها ، والمراد تهذيبها والمداومة عَلَىٰ تدريبها .

وَأَنْ نَتَذَكَرَ عَلَىٰ الدَّوَامِ قَوْلَ اللَّهِ ـ عَلَتْ كَلِمَتُهُ ـ مُخَاطِباً نَبِيَّهُ الكَرِيمَ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَىٰ التَّسْلِيمِ :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ... ﴾(١)

وَقَوْلَهُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ... ﴾(٢)

* * *

(١) سورة آل عمران : آية ١٥٩.
(٢) سورة النحل : آية ١٢٥.

كتب للمؤلف

- نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد .
- شعر الطَّرد «إلى نهاية القرن الثالث الهجري» .
- علي بن الجَهْم «حياته وشعره» .
- صور من حياة الصحابة .
- صور من حياة الصحابيات .
- صور من حياة التَّابعين .
- حدث في رمضان .
- أرض البطولات .
- البطولة .
- الصَّيد عند العرب «أدواته وطرقه ـ حيوانه الصائِد والمصِيد» .

* * *

الفِهْرِس

* * *

هذا الكتاب

أثار قضية من أهم القضايا المؤثرة في حياة البشرية ألا وهي المنهاج الذي يرسم الطريق لجوانب حياتها، ويوائم متطلبات جسدها ونوازع روحها ... وأن الإنسان بأهوائه وعلمه وعقله عاجز كل العجز عَلَىٰ أن يضع هذا المنهاج الشامل الذي يصلح للبشرية كلها في سائر أجيالها ...

وقد حسم المؤلف - رحمه الله - هذه القضية بأن هذا المنهاج هو الدين بمنطق لا يحتمل الجدل.

وقد تطرق هذا الكتاب إِلَىٰ أهم العلاقات الإنسانية المؤثرة في أي مجتمع كان، والتي نظمها الإسلام منذ أربعة عشر قرناً ...

وبَيَّنَ الفارق العظيم بين مدنية الإسلام التي فاضت بالخير والبر حتىٰ بلغت ترفاً وبَيَّنَ مبادئ الحضارة الغربية التي لا ينعم بها الملونون الغربيون أنفسهم ...

الناشر